اختيارات الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله) دراسة ونقد

د٠ محمد أحمد الجمل (*)
د٠ عبدالرزاق أحمد رجب (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله، وعظيم نعمائه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، أمّا بعد:

فإنّ مائدة المفسرين من السلّف والخلف كانت القرآن الكريم؛ حيث يعكفون على تدبر آياته، وبيان مقاصده، ويكشفون عن فرائده ودفائنه؛ فهو وحي الله تعالى النّازل من لدنه على قلب النّبي محمد صلى الله عليه وسلم تفصيلاً وتبييناً، وهدى ورحمة للعالمين.

ولأنّ الأمر متعلق بالكشف عن مراد الله تعالى من كلامه في كتابه المجيد، كان لا بدّ للبحث التفسيري عند المفسرين أن يكون محكوماً في تحليله واستنباطاته بمنهجيّة صارمة، وضوابط دقيقة. ولطالما تورَّع كثير من ذوي الحِجا من العلماء عن التفسير رهبا، ونبّه آخرون على شروطه وأصوله احتياطاً، ودرءاً من حمل الآيات على غير مرادها وقصدها.

(*) أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن، قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، الأردن.

(*) أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن، قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، الأردن.

وإنّ كان بعض المفسرين قد ألمح إلى منهجه وأسلوبه في الكشف والبيان عن معاني القرآن بإيجاز أو تفصيل، فقد قام جِلةٌ من العلماء بالتصنيف فيما يتصل بنشأة التفسير وتطوره، وكذلك في منهج المفسر في تفسيره. وهذا كلّه اقتضى جهداً بالغاً من الاستقراء والتحليل للمحتوى التفسيري للوقوف على ما اشترك فيه المفسرون من خطوط عامّة، وما انفرد به كلّ واحد عن غيره. وممّن كتب في ذلك في العصر الحديث الشيخ محمد الفاضل بن عاشور رحمه الله تعالى في كتابه (التفسير ورجاله) الذي يعدّ مرجعاً أصيلاً ودراسة محورية في تناول هاتين القضيتيْن المتصلتين بعلم التفسير.

وتناقش هذه الدراسة الموسومة بـ "**اختيارات الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله) دراسة ونقد**" أهمَ اختيارات الشيخ الفاضل بن عاشور في المسائل المبثوثة في الكتاب مما هي متعلقة بقضيتي "تطور التفسير، ومناهج المفسرين".

أهمية الدراسة: تظهر أهمية الدراسة في كون كتاب (التفسير ورجاله) يُناقش بابيْن يكادان لا يفترقان؛ لما بينهما من الاقتران والأخوّة، وهما: (تطوّر التفسير، ومناهج المفسرين)؛ فالدراسة تُعرّف بكتاب كان تجديداً في موضوعه؛ لما تميز به مؤلفه من اضطلاع بهذا العلم فوق كونه سليل دوحة من العلماء على رأسهم والده الشيخ الطاهر بن عاشور إمام المفسرين المعاصرين، وقد تتبع المؤلف حركة التفسير منذ بداياتها إلى العصر الراهن معرّفا بنماذج من التفاسير غلب على تصوره أنّها كسبت تميّزاً في المنهج والمضمون، وأحدثت أثراً واضحاً في الحياة العامّة للمسلمين بشكل عام، وفي الفكر الإسلامي بشكل خاصّ.

مشكلة الدراسة: مما عُرف عن الشيخ محمد الفاضل بن عاشور تميزه بالشخصية المستقلة، والقناعات الخاصة. وقد ظهر هذا جليّاً في كتابه (التفسير ورجاله)؛ فهو يناقش العديد من القضايا المتصلة بعلم التفسير مفهوماً أو تأريخاً،

ففي بعضها يوافق غيره أحياناً، ولكنه يُضيف في المسألة، أو يُعدّل، أو يتخذ رأياً وسطاً. وفي أحايين أُخر يخالف غيره، حتى تراه في مواضع يُخالف أباه الشيخ محمدًا الطاهر ابن عاشور صاحب (التحرير والتنوير).

وتحاول الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: **ما اختيارات الشيخ محمد الفاضل في كتابه (التفسير ورجاله)؟** ويتفرع على هذا السؤال الأسئلة الآتية:

١- ما مدى علاقة كتاب (التفسير ورجاله) للشيخ محمد الفاضل بتفسير أبيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير)؟

٢- ما رأي الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في المسائل المتعلقة بمفهوم التفسير بالمأثور، وتفسير ابن عباس رضي الله عنهما، وتدوين التفسير؟

٣- ما موقف الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في المقارنة بين يحيى بن سلام وابن جرير الطبري في مسألة (منهج التفسير الأثري النّظري)؟

٤- ما موقف الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في قضية المقارنة بين الزمخشري وابن عطيّة؟

٥- ما رأي الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في نسبة تفسير مفاتيح الغيب كاملا إلى الإمام الرازي؟

أهداف الدراسة: تتوخى هذه الدراسة تحقيق الأهداف الآتية:

١- التعريف بكتاب (التفسير ورجاله) ومؤلفه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور.

٢- بيان علاقة ومدى تأثره به كتاب (التفسير ورجاله) بتفسير التحرير والتنوير.

٣- بيان رأي الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في المسائل المتعلقة بمفهوم التفسير بالمأثور، وتفسير ابن عباس رضي الله عنهما، وتدوين التفسير ومناقشته.

٤- بيان موقف الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في المقارنة بين يحيى بن سلام وابن جرير الطبري في مسألة (منهج التفسير الأثري النّظري) ومناقشته.

٥- بيان موقف الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في قضية المقارنة بين الزمخشري وابن عطيّة ومناقشته.

٦- بيان رأي الشيخ محمد الفاضل في نسبة تفسير مفاتيح الغيب كاملا إلى الإمام الرازي ومناقشته.

الدّراسات السابقة: وجد الباحثان دراستيْن متعلقتيْن بموضوع البحث، وهما:

١- مسيرة علم التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله)، لعبد الرحمن حللي، وهذه الدراسة في أغلبها تلخيص لمحتوى الكتاب، مع تقديم شيءٍ من النّقد لمسألتي مفهوم التفسير بالمأثور، و(أقدم من ألّف في التفسير) عند الشيخ الفاضل ابن عاشور(١).

٢- دراسة بعنوان: (الإمام محمد الفاضل بن عاشور (ت١٣٩٠هـ) وجهوده في التفسير وعلوم القرآن) لساسية جار الله. حيث تحدثت الباحثة في الفصل الثاني عن (جهود الإمام الفاضل بن عاشور في التفسير وعلوم القرآن)، فقامت بدراسة أصل الكتاب، وموضوعه، ومسلك الشيخ الفاضل فيه، ثم انتقلت إلى الحديث عن نماذج من المفسرين بذكر ملخص لكلام الشيخ الفاضل حول مناهجهم التفسيريّة، ثم ناقشت طريقة الشيخ الفاضل في عرض الكتاب، وأهم اختياراته في الكتاب مثل عرض رأيه في مفهوم التفسير بالمأثور، وتقديم تفسير ابن عطية على تفسير الزمخشري، وتصحيح نسبة تفسير مفاتيح الغيب إلى الإمام الرازي وغير ذلك فعرضت لذلك دون إجراء أيّة مناقشات علميّة لهذه

(١) يُنظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة علم التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله)، مجلة الدراسات القرآنيّة، العدد ١١، ١٤٣٣هـ، ص٥٤٥- ص٥٤٨ وكذلك ص٥٨٩- ص٥٩٠.

الاختيارات[١]. وعقدت الباحثة مبحثا بعنوان (المآخذ عليه)، ومنها: أنّه لم يتعرض في كتابه إلى دراسة مجموعة من التفاسير الهامّة التي اشتهرت على اختلاف مناهجها، أو كان لها أثر بارز في تاريخ هذا العلم الشريف (علم التفسير). ومنها أيضاً: نقده في مسألة أقدم تفسير على الإطلاق، وأقدم من ألّف في التفسير[٢].

الإضافة العلمية في دراستنا: تزيد هذه الدراسة على الدراستين السابقتين مع كونها عرّفت بالكتاب من حيث أصله، والمنهج العام للشيخ الفاضل فيه، وقدّمت بصورة ملخصة محتواه ومضمونه- في أنّها قامت بالمناقشة العلميّة النقديّة لأهم اختيارات الشيخ محمد الفاضل في العديد من المسائل التي تناولها في كتابه وأشرنا إليها في أسئلة الدراسة وأهدافها.

حدود الدّراسة: تتحدد هذه الدراسة في كونها تعرض لأهم اختيارات الإمام الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في المسائل المتعلقة بقضيتي تطور التفسير ومناهج المفسرين فيما اشتمل عليه متن كتابه (التفسير ورجاله)، ومناقشته في هذه الاختيارات.

منهج الدّراسة: استخدم الباحثان المنهجين الاستقرائي والنقدي، فقاما باستقراء كتاب (التفسير ورجاله) وتتبع أهم اختيارات المؤلف المتعلقة بتطور التفسير ومناهجه، ثمّ نقدها بمنهج علميّ موضوعيّ.

خطة الدراسة: قسّم الباحثان الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، وخمسة مطالب، وخاتمة، فأما المقدمة فقد بيّنت الدافع لكتابة هذا البحث، وأهمية الدراسة وأسئلتها وأهدافها والدراسات السابقة وحدود الدراسة ومنهجيتها وخطتها، وأما **التمهيد** فكان

---

(١) يُنظر: ساسية جار الله، الإمام محمد الفاضل ابن عاشور (ت١٣٩٠هـ) وجهوده في التفسير وعلوم القرآن(رسالة ماجستير)، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، الجزائر، ٢٠١٨م، ص٢٤- ص٣٧.

(٢) يُنظر: المصدر السابق، ص٤١- ص٤٥.

بعنوان: التعريف بالشيخ محمد الفاضل بن عاشور. وأما المطالب فهي: **المطلب الأول:** التعريف بكتاب (التفسير ورجاله)، وعلاقته بتفسير التحرير والتنوير. **المطلب الثاني:** التفسير بالمأثور، وتفسير ابن عباس، وتدوين التفسير. **المطلب الثالث:** التفسير الأثري النظري بين يحيى بن سلام وابن جرير الطبري. **المطلب الرابع:** بين الزمخشري في الكشاف، وابن عطية في المحرر الوجيز. **المطلب الخامس:** رأي الشيخ محمد الفاضل في نسبة تفسير مفاتيح الغيب إلى الإمام الرازي. وأمّا **الخاتمة** فقد تضمنت أهم النتائج والتوصيات.

ونسألُ اللهَ تعالى التوفيق والقبول، وأن ينفع بهذا العمل، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

تمهيد

التعريف بالشيخ محمد الفاضل ابن عاشور

اسمه ونسبه: ولد الشيخ محمد الفاضل في أسرة عريقة علما ونسبا؛ فأبوه أحد أساطين التفسير والعلم الشرعي في العصر الحديث الإمام محمد الطاهر بن عاشور؛ فهو محمد الفاضل ابن الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، أحد الأئمة الأعلام في تاريخ تونس المعاصر، ومن أعلام الفكر الإسلامي الحديث، الموسوعي الثقافة، والخطيب اللامع، والسياسيّ المحنك، ولد بالمرسى من ضواحي تونس الشمالية أو بتونس في ٢ شوال سنة ١٣٢٧هـ/ ١٦ أكتوبر ١٩٠٩م، وجدُّه هو الذي سماه بهذا الاسم(١).

نشأته: توافرت للإمام الشيخ عوامل وأسباب متنوعة أثرت في التكوين العلمي لشخصيته، وفي أولاها: ما حباه الله تعالى به من مقوّمات فطرية من الذكاء والانتباه، وثانيها: أسرة دفعته للعلم، وحرّضته عليه، بل تابعت مسيرته فيه، وأثرت به بتجاربها وخبراتها، وثالثها: بيئة خصبة بما تحويه من الأساتذة والشيوخ، ومصنفات العلم المطبوعة والمخطوطة.

"اعتنى والده الشيخ ابن عاشور بتربيته وتوجيهه عناية بالغة تجمع بين الحزم واللين؛ فتعلم في المنزل بداية من السنة السادسة من عمره الهجاء في كتب مدرسية مصريّة، ثم شرع في حفظ القرآن العظيم، ولما بلغ التاسعة من عمره شرع في حفظ المتون العلمية؛ كالآجرومية، والمرشد المعين لابن عاشور، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وألفية ابن مالك، وتحفة الحكام لابن عاصم. ولما بلغ العاشرة من عمره أعاد حفظ القرآن مرة ثانية، وبدأ في تعلم الفرنسية على معلمين خصوصيين في ساعات معيّنة بالمنزل، فأجاد تعلّم اللغتين العربيّة والفرنسيّة. وفي

(١) تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ج٣، ص٣١٠.

سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢ شرع في قراءة دروس في القراءة، والتوحيد، والفقه، والنحو بمسجد سيدي أبي حديد المجاور للمنزل بتونس بنهج الباشا، في آخر السنة اجتاز بنجاح امتحان الدخول للتعليم الزيتوني فقبل في السنة الثانية، واستمر على تلقي الدروس الخاصة باللغة الفرنسية، واختزل سنة أخرى عن برنامج التعليم بجامع الزيتونة فاجتاز بنجاح شهادة ختم الدروس الثانوية المسماة في ذلك العصر شهادة التطويع سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨، وفي السنة الدراسية الموالية أقبل على مزاولة التعليم العالي بجامع الزيتونة، وانخرط في سلك المدرسة العليا للغة والآداب العربية بسوق العطارين، وانتسب إلى كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة ١٩٣١. اجتاز بنجاح مناظرة التدريس من الطبقة الثانية سنة ١٩٣٢، وبعد مدة اجتاز كذلك بنجاح مناظرة التدريس من الطبقة الأولى. وفي مدة دراسته بجامع الزيتونة كان يعيش تحت مراقبة حازمة من قبل والده؛ فتنقله بين الجامع والمنزل ونظام أوقاته مُضيّق عليهما جدًا؛ لئلا ينغمس في حركات أدبية واجتماعية، أو يختلط بجماعات تجعله غير ناجح في دراسته، أو مقبلاً عليها بكللٍ، أو مشمئزاً منها ومفكراً في الانقطاع عنها، كما كان شأن غيره ممن سلك هذا السبيل، فكان من الحكمة الكبرى مراقبته والتضييق عليه؛ ليقبل بجدّ على الدراسة لا غير"[(١)]. "لقد توفر للشيخ الفاضل بن عاشور الكسب الشرعي الزيتوني، والتشكيل الثقافي، والاستعداد الفطري الذي ميّزه عن أقرانه، والتجربة الميدانية التي منحته الرؤيا الواضحة للواقع الإسلامي، والتعرف على نتائج حركات النهوض والإصلاح. ونشأ وتربى في مناخ والده الشيخ الطاهر عاشور، العالم الأديب، صاحب الكتاب المشهور (مقاصد الشريعة الإسلامية)، وشيخ جامع الزيتونة، ورئيس المفتين في

(١) تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ج٣، ص٣١١/٣١٢، وينظر: خليفة محفوظي، مجلة دعوة الحق، جوانب من شخصية العلامة محمد الفاضل بن عاشور، العددان: ١٣١ و١٣٢.

تونس مسترشداً بتوجيهاته، ومعتمداً على مكتبته الحافلة بكنوز العلم ونفائسه. وتخرج في المعهد الزيتوني الذي شكّل مرجعيته الشرعيّة.... كما خبر الحياة مدرساً، وقاضياً ومفتياً، ومكافحاً للاستعمار، الأمر الذي نوّع موارده الثقافيّة، وتجاربه الحياتيّة، وجعله يتوفر على رؤية دقيقة مستمدة من عطاء الوحي، واجتهاد العقل..." [(١)]. وتأثرت شخصيته كذلك بجدّه لأمّه الوزير الأكبر الشيخ محمد العزيز بوعتور العالم الجليل، والحقوقي الضليع، والدبلوماسي المحنك، والإداريّ الناجح[(٢)]. واستفاد بما كانت تزخر به مكتبة والده محمد الطاهر بن عاشور (المكتبة العاشوريّة) من نصوص أدبيّة، ومخطوطات نادرة، ونفائس من الكتب مكنت الشيخ محمد الفاضل من الحصول على معلومات واسعة، ستثري له مستقبلاً محاضراته أمام المحافل العلميّة[(٣)].

نشاطه وأعماله: تخرج من جامع الزيتونة سنة ١٩٢٨م، ثم عيّن مدرساً معاوناً فيه، ثم مدرساً بالقسم العالي. وفي سنة ١٩٤٥م انتخب رئيساً للجمعيّة الخلدونيّة، وأنشأ معهد البحوث الإسلاميّ، وألقى أكثر من مائتي محاضرة عن شؤون العالم الإسلامي، وشارك في مجلس التعريف بالمخطوطات الزيتونيّة، ومجالس إصلاح التعليم الزيتوني، ومجلس التعليم الأعلى للدولة التونسيّة. وفي سنة ١٩٥٣ عُيِّن مفتياً للديار التونسيّة، ثمّ أستاذاً للتشريع الإسلامي بمدرسة الحقوق العليا، ثم قاضياً للقضاة، ورئيساً للمحكمة العليا الشرعية، فرئيساً لمحكمة النقض والإبرام[(٤)]. وألقى محاضرات في جامعة السوربون (بفرنسا)، وجامعة

---

(١) روح الحضارة الإسلامية، محمد الفاضل بن عاشور، من كلمة مُقدم الكتاب عمر عبيد حسنة، ص١٣/١٤.

(٢) أعلام تونسيون، الصادق الزمرلي، ص٣٥٠/٣٥١.

(٣) أعلام تونسيون، الصادق الزمرلي، ص٣٥١، وينظر كذلك: خليفة محفوظي، مجلة دعوة الحق، جوانب من شخصية العلامة محمد الفاضل بن عاشور، العددان: ١٣١ و١٣٢.

(٤) المجمعيون (مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً)، مهدي علام، ص١٦٣.

استانبول، وجامعة عليكره في الهند. وشغل خطة القضاء بتونس. وهو من أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة ورابطة العالم الإسلامي بمكة[١]. وشارك في الكثير من المؤتمرات والمجامع العلميّة، مثل: مؤتمر المستشرقين بباريس سنة ١٩٤٨م، ومؤتمر الثقافة الإسلامية بتونس سنة ١٩٤٩م، ومؤتمر الأدباء العرب بالكويت سنة ١٩٥٨م. وهو عضو في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر منذ نشأته سنة ١٩٦٢م. وشارك في تحرير المجلات العلميّة والأدبيّة[٢]. وقد قام بعدة رحلات فرحل أول مرة إلى فرنسا سنة ١٩٢٦، وزار مصر مرات، والحرمين الشريفين أكثر من مرة والقطر الجزائري، وزار المغرب الأقصى كما زار ليبيا مرة واحدة، ورحل إلى سوريا ولبنان وبغداد وإيطاليا وسويسرا وتركيا وألمانيا والنمسا واليونان وبلغاريا ويوغوسلافيا، وربط صلات مع كثير من رجال العلم والأدب[٣].

نشاطه الاجتماعي والوطني: ولما أحرز شهادة التطويع (الثانويّة)، زالت عنه قيود المراقبة والتضييق الأسري، فقام بنشاط اجتماعي متعدد الجوانب والاتجاهات، فعمل بالجمعية الخيرية، وبجمعية قدماء الصادقية، ولجان الحفلات بالمرسى والمنظمات التي أنشأها مع جماعة من زملائه الطلبة، ودخل المجلس الإداري للخلدونية سنة ١٩٣١، وألقى محاضرات على منبر الخلدونية[٤]. وظهر نشاطه الاجتماعي في أبهى صوره في مشاركته في الكفاح الوطني ضدّ المستعمر الفرنسي الذي تسلط على بلده تونس وقتذاك؛ حيث كان رائداً من روّاد الحريّة، وأحد دعاة الوعي الثقافي من خلال محاضراته في جمعيات الشباب ومقالاته الأدبيّة والسياسيّة في مجلات وجرائد كثيرة في تونس ومصر وغيرهما؛ فكانت له

(١) الأعلام، الزركلي، ج٦، ص٣٢٥/٣٢٦.
(٢) المجمعيون (مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً)، مهدي علام، ص١٦٣.
(٣) تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ج٣، ص٣١٢.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص٣١٢.

إسهاماته في تكوين الحركة الوطنية في بلده تونس[١]. وألقى دروساً في كليّات المغرب، وبجامع القرويين، وبالمجالس الحديثيّة التي كانت تعقد أمام الملك المغربي الحسن الثاني[٢].

تآليفه ومصنفاته: بتنوّع العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته العلمية تعددت النشاطات والإنتاج العلمي والفكري للشيخ محمد الفاضل. فقد عرف بغزارة التأليف في علوم متعددة متصلة بالدين والشريعة تفسيراً وأصولاً وفقهاً وغير ذلك. سواء أكان ذلك في الكتب أم المقالات العلمية في مجلتي الثريّا والزيتونية، وغيرهما. ومن أبرز تآليفه: التفسير ورجاله (وهو أشهرها)، وأركان النهضة الأدبية، وأعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي، والحركة الأدبية والفكرية في تونس، وتراجم الأعلام، وغيرها [٣].

وفاته: في منتصف صفر ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م توفي الشيخ محمد الفاضل ابن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، إثر مرض عضال لم ينفع فيه علاج، وتولى إمامة الصلاة عليه والده الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وصلّت عليه جموع غفيرة من العلماء والوزراء، وبكاه العالم الإسلامي من الأعيان وغيرهم[٤].

---

(١) خليفة محفوظي، مجلة دعوة الحق، جوانب من شخصية العلامة محمد الفاضل بن عاشور، العددان: ١٣١ و١٣٢.

(٢) تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ج٣، ص٣١٢.

(٣) إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، ابن سودة، ، ج٢، ص٦٠٤. وينظر: أعلام تونسيون، الصادق الزمرلي، ص٣٥٢.

(٤) ينظر: إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، ج٢، ص٦٠٤، وتراجم المؤلفين التونسيين، ج٣، ص٣١٢، و أعلام تونسيون، ص٣٥٢، ومعجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢، ج٦، ص٥٤.

المطلب الأول

التعريف بكتاب (التفسير ورجاله)، وعلاقته بتفسير التحرير والتنوير.

المحور الأول: التعريف بكتاب(التفسير ورجاله).

هذا الكتاب – كما أشارت المقدمة التي كتبها محمد الحبيب ابن الخوجه تلميذ الشيخ محمد الفاضل – هو عبارة عن تلخيص للأطوار التي مرّ بها (تاريخ التفسير)، وبيان للأسباب والبواعث التي اقتضت تطوره في كلّ عصر، وإلى جملة الخصائص والمميزات التي يختلف بها هذا التطور عن الذي يتقدمه ويليه من مراحل التأليف في علم التفسير، وقد تأتّى هذا الإنجاز بعد دراسة طويلة وحسن قيام على كتب التفسير. فبعد أن بدأ الشيخ محمد الفاضل طلب التفسير وتحصيله بما كان يحضره من دروس البيضاوي على شيخه محمد بن يوسف، وكذلك حضوره لدروس التحرير والتنوير لوالده الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، اشتغل محمد الفاضل –بعد ذلك– بتدريس مادة التفسير بجامع الزيتونة مستفيداً من كتب التفسير المخطوطة والمطبوعة، ثم أقبل بعد ذلك على الاشتغال بالدراسات القرآنيّة في الكلية الزيتونيّة، فألقى محاضرات في الدراسات القرآنيّة لمدة ثلاث سنوات كان ملخصها هذا الكتاب. وكانت هذه المحاضرات محل الاستماع من النّاس في تونس عبر أجهزة الإذاعة التي كانت تبث هذه المحاضرات كلّ أربعاء من كلّ أسبوع[1].

ويلخص الأستاذُ ابنُ الخوجة المحتوى العام الذي عرضه الشيخ محمد الفاضل في محاضراته التي أضحت كتاباً بعد ذلك، فيبيّن أنّه أولاً ردّ على الحشويّة، وطعن النّحلة الباطنيّة، لمّا قال: "... انعقد إجماع الأمة الإسلامية على

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، من (تصدير) الكتاب لمحمد الحبيب ابن الخوجة، طبعة دار الكتب الشرقيّة، ط٢، ١٩٧٢، ص٦– ص٨ باختصار.

أنّ كل لفظ في القرآن له معناه الإفرادي، وكل كلام له معناه التركيبي، وأنّه لم يرد في القرآن ما لا معنى له، ولم يرد فيه نصوص لها معاني لا تفهم إلا بالتوقيف عليها من طرف شخص معين، بل إنّ كل ما فيه يدل على معاني ظاهرة، دلالته عليها بحسب الوضع اللغوي العربي، وقوانين التركيب العربي"[١]. ثم بعد ذلك دخل الشيخ الفاضل في مدرسة التفسير القائمة على اعتماد المأثور متخلصاً منها إلى المدرسه اللغويّة العلمية، فالفلسفيّة الحكميّة، فالفقهيّة الشرعيّة[٢]، فالاجتماعيّة الإصلاحيّة.

جاء الكتاب ثريًّا غنيًّا في بابه؛ لما تميز به من تحرير مسبوك، وقلم رصين، فالناظر فيه يجد لمسة الأديب الذي هذّب البيان قلمه، وقد علك الموضوع الذي يعالجه. فعلى توسط الكتاب فقد كان مساهمة في الحديث عن جوانب ذات أهمية بالغة تتعلق بمناهج المفسرين.

وقد يظن النّاظر للكتاب لأول وهلة فيظن أنّ صاحبه قد أحاط بأشهر كتب التفسير أو على الأقل ذكر على الاتجاهات التفسيرية التي ظهرت أبرز ما يمثلها من أمّهات مصنفات التفسير، ولكن لم يحصل لا الأمر الأول ولا الثاني ليس عجزاً في الشيخ محمد الفاضل بن عاشور؛ وإنّما لأنّ الكتاب كان كما قلنا سلسلة من المحاضرات العلمية التي قدّمها في هذا الباب.

ويتميز منهجه العام بأنّه يُعرف بالمفسر نسباً وشهرة ونشأة، ثم يعطي تعريفاً بأبرز رحلاته أو شيوخه، ويُعرّف بالتفسير من حيث الظروف التي أحاطت به، ويقدم موجزاً للأسلوب العام للمفسر مع بيان ما تميّز به. وقد يقارن بين كتابين في التفسير كانا في حقبة واحدة كما فعل بين الكشاف والمحرر الوجيز. وقد يبيّن فضل تفسير على آخر كما نسب لتفسير البيضاوي الفضل في شهرة تفسير

---

(١) المصدر السابق، ص٨، والنّص نفسه للمؤلف، ص١٧.

(٢) **قلنا:** لا يرد في الكتاب على الحقيقة نمط لأحد كتب التفسير في الاتجاه الفقهي.

الزمخشري. ويُنبّه حيناً على أنّ التفسير إنّما هو دروس ومحاضرات تفسيرية ألقاها المفسر، ثم جمعها بعض تلاميذه، كما فعل مع تفسير ابن عرفة. وحيناً آخر يُرجح أمراً يتعلق بالتفسير من حيث اكتماله في حياة صاحبه أو لا، كما فعل مع تفسير مفاتيح الغيب. وأطال الشيخ محمد الفاضل النفسَ في الحديث عن تفسير الشهاب الآلوسي مبيّناً الأحوال التي عاشها المفسر، ودفعته لتصنيف التفسير، ثم يعتذر عن النَّقْدِ الذي وُجّه إليه في باب التفسير الإشاري. ويتحدث كذلك عن الاتجاه الإصلاحي في التفسير من خلال مدرسة المنار بعد أُفول القرن الثالث عشر ودخول الرابع عشر، وجهود أشياخ هذه المدرسة مع بيان الفروق بين الأستاذ والتلميذ من حيث منهجية التفسير أي بين الأستاذ الإمام محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا.

وهو في حديثه تلحظ أماني الحرص من الشيخ محمد الفاضل أن يستثمر المسلمون تفسير القرآن في اتجاه هدائي يخرجون به مما أصابهم من جمود في الحياة، وابتداع في الدين، وما ران على عقول العديد من أبنائهم سحائب فكر وارد جديد يلبَسُ جلباب العلم، وهو انحراف عن مقررات العقل والعلم والفكر. يقول الشيخ ابن الخوجة: "تتعرض المحاضرات إلى كلّ المراحل والأطوار مركزة كلّ الخصائص والمميزات والاتجاهات والتصرفات على المقومات العلميّة والفكريّة لشخصية المفسر. وما توحي به إليه ظروفه التاريخية والاجتماعيّة والسياسيّة. يدلّ على ذلك ما تعرض به لكل واحد من المفسرين الذين تحدث عن كتبهم من بيان لمداريهم وطرائق تخرجهم، وذكر للتأثيرات الإقليميّة والجنسية والاجتماعيّة والسياسيّة فيما حبّروه من شروح، ودبّجوه من تأويلات لنصوص القرآن الكريم"[1].

قد أظهر الشيخ محمد الفاضل في كتابه التفسير ورجاله جرأة في الطرح؛ ولذا ظهرت له مخالفات في النقد التفسيري المنهجي لأمور كان الإقرار بها إجماعاً، أو

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص١١.

شبه إجماع. وكان للشيخ أيضاً آراء تجديديّة في الحديث عن التفسير وتطوره كتفريقه بين أسباب النزول ومناسبات النزول، مع ما قدّمه من معلومات ومعارف تتعلق بالعديد من مخطوطات كتب التفسير في تونس أو في غيرها من الأقطار.

المحور الثاني: علاقة كتاب (التفسير ورجاله) بتفسير (التحرير والتنوير) للطاهر ابن عاشور.

ينبغي التنويه بداية إلى أنّ كتاب التفسير ورجاله لم يخرج للنور ليكون بأيدي العامة والخاصة إلا بعد وفاة صاحبه محمد الفاضل؛ حيث التحق بالرفيق الأعلى والكتاب يتهيأ للطباعة[١] بدليل أنّ الكتاب يخلو من مقدمة للكاتب ممّا يدل على أنّ الأجل قد أصاب صاحبه قبل أنْ ينظرَ فيه تعديلاً وتهذيباً. والمقرر –كما مرّ آنفاً– أنّ الشيخ محمداً الفاضل كان يحضر دروس أبيه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، بل إنّ الغالب على الذهن أنّه قد حضرها كلّها. ولا شكّ أنّ هذا قد أثر في شخصيته التفسيريّة، وفي تناوله لقضايا التأريخ لعلم التفسير. فتدوين كتاب (التحرير والتنوير) استغرق نحو أربعين سنة حسب قول الشيخ ابن عاشور نفسه: "وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف. فكانت مدة تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر. وهي حقبة لم تخل من أشغال صارفة، ومؤلفات أخرى أفنانها وارفة، ومنازع بقريحة شارية طوراً، وطوراً غارفة، وما خلا ذلك من تشتت بال، وتطور أحوال، مما لم تخلُ عن الشكاية منه الأجيال، ولا كُفرانَ لله فإنَّ نعمَه أوفى، ومكاييل فضله عليّ لا تطفَّفُ، ولا تُكْفا"[٢].

---

(١) ينظر: التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، من (تقديم) الكتاب للأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية عبد الحليم محمود، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، السنة الثانية، الكتاب الثالث عشر، ١٣٩٠هـ–١٩٧٠م، ص٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٣٠، ص٥٥٨.

فالصحيح إذاً أن يكون محمد الفاضل قد اطلع على تفسير أبيه كاملاً؛ فإنّ وفاة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور كانت سنة ١٣٩٠هـ، وهذا يعني أنّه أدرك تفسير أبيه كاملاً؛ لأنّ وفاته كانت بعد عشر سنين من إتمام أبيه محمد الطاهر للتفسير. فإذا ما علمنا أن ولادة محمد الفاضل كانت سنة ١٣٢٧هـ فهذا يعني أنّ ابتداء محمد الطاهر في تصنيف التحرير والتنوير كان بعد أن أتم ولده محمد الفاضل أربعة عشر عاماً أي في سنة ١٣٤١هـ؛ فيكون الشيخ محمد الفاضل قد اطلع على تفسير التحرير والتنوير كاملاً.

ومن الأمثلة على تأثر الابن (محمد الفاضل) بالأب المفسر (محمد الطاهر) ما درج عليه الشيخ محمد الفاضل بالإشادة بالمفسرين التونسيين. ومثل هذا الشيء نجده كذلك عند ابن عاشور في تفسيره. يتحدث الشيخ محمد الفاضل مثلاً عن الشيخ محمد ابن عرفة التونسي المفسر، فيقول: "فكان ابن عرفة طيلة نصف قرن أو أكثر غير منقطع عن درس التفسير، كلما أنهى ختمة منه أعاد ختمة جديدة. وكانت أفواج الطلبة المتخرجة بين يديه في ذلك الدرس أجيالاً متعاقبة متتالية، كلما تخرجت منها طبقة، فانتشرت تبثّ العلم في أرجاء البلاد المغربية أقبلت طبقة بعدها ترتوي كما ارتوت سابقتها من ذلك المنهل الفياض الذي لا يجفُّ نبعه، ولا ينقطع معينه"(١). وعن تلاميذه يقول: "وأشهر الذين عرفوا بتدوين هذا التفسير هم ثلاثة من أكابر أصحابه تونسي وجزائري ومغربي؛ أما التونسي فهو أكبر أصحاب ابن عرفة وأخصهم به وهو الشيخ محمد الأبي..." (٢). وهذا ابن عاشور ينوّه بمقام ابن عرفة في تفسيره، فيقول في تفسير قول الله تعالى: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}": "أُعيد فعل القول في هذه الجملة مستأنفاً غير مقترن بعاطف، ولا مستغن عن فعل القول بواو عطف، مع كون

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص١٥٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٦.

القائل واحداً، والغرض متحداً، خروجاً عن مقتضى الظاهر؛ لأن مقتضى الظاهر في مثله هو العطف، وقد أهمل توجيه ترك العطف جمهور الحذّاق من المفسرين: الزمخشري وغيره، ولعله رأى ذلك أسلوباً من أساليب الحكاية، وأول من رأيته حاول توجيه ترك العطف هو الشيخ محمد بن عرفة التونسي في إملاءات التفسير المروية عنه، فإنه قال في قوله تعالى الآتي في هذه السورة: [١٤٠]: {قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً} بعد قوله: {قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [لأعراف: ١٣٨]؛ إذ جعل وجه إعادة لفظ قال هو ما بيّن المقالين من البوْن، فالأول راجع إلى مجرد الإخبار ببطلان عبادة الأصنام في ذاته، والثاني إلى الاستدلال على بطلانه"[١].

ولكن هذا لا يعني أنّ محمداً الفاضل كان يوافق أباه الشيخ محمد الطاهر في جميع المسائل التفسيريّة التي كان يلقيها في محاضراته، فسيأتي معنا بعد قليل بإذن الله تعالى قضايا خالف فيها أباه مثل القيمة في (التفسير البياني) لكتابي الكشاف والمحرر الوجيز.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٨، ص٥٤.

المطلب الثاني

التفسير بالمأثور، وتفسير ابن عباس، وتدوين التفسير

هذه قضايا ثلاث حفل بها عنوان هذا المطلب، وستكون مناقشتها حسب ترتيبها عند الشيخ محمد الفاضل بن عاشور رحمه الله تعالى.

القضية الأولى: وهي تحديد مصطلح (التفسير بالمأثور) فإنَّ ذِكْرنا لها ليس من باب النقد للشيخ بقدر ما هو التنبيه على اصطلاحه الخاص به للتنويه بشأنه كونه يُخالف أباه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ثم لدرء التعارض بين وصفه للتفسير بالمأثور عمّا ذكره الشيخ محمد رشيد رضا في منهجه في تفسير المنار بعد وفاة أستاذه الشيخ محمد عبده؛ لئلا يتوّهم أنّ العبارة واحدة في توصيف المصطلح.

تعدّ عملية بيان الحدود الجامعة لهذا المصطلح من القضايا الشائكة، أولاً: لتأخر ظهور هذا المصطلح، فلا تجده في عناوين التفاسير إلا عند السيوطي في تفسيره (الدّر المنثور في التفسير بالمأثور)، وثانياً: لاختلاف وجهة نظر من تداوله من حيث النّاحية العمليّة الدّالة عليه.

ففي حين وسّع بعضهم دائرته حتى جعله يشمل ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما نُقِل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقِل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم[1]. وبعضهم استثنى تفسير

---

(١) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج١، ص١١٢. وهو كذلك رأي الشيخ محمد أبو شهبة حيث يقول: " الشيخ محمد أبو شهبة: "التفسير بالمأثور أي بالمنقول، سواء أكان متواترًا أم غير متواتر. وعلى هذا: يشمل المنقول عن الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم والمنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم والمنقول عن الصحابة رضوان الله عليهم والمنقول عن التابعين رحمهم الله، وعلى هذه الأنواع الأربعة يدور التفسير بالمأثور". الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة، ص٤٥/٤٦.

التابعين من أن يشمله هذا المصطلح، فقال: التفسير المأثور هو ما جاء في القرآن أو السنّة أو كلام الصحابة بيانا لمراد الله تعالى من كتابه"[١]، وأمّا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فإنه الذي يُستنبط من حديثه عن التفسير بالمأثور في المقدمة الثالثة أنّه يكون في تفسير القرآن للقرآن وتفسير القرآن بالسنّة[٢]. وأمّا الشيخ الدكتور فضل حسن عباس، فقد قصره فقط على التفسير النبوي أو ما روي عن الصحابة وله حكم المرفوع مثل أسباب النزول؛ حيث قال: "لكن الذي يظهر لي، ويتفق مع مكانة التفسير الأثري، أنّ التفسير المأثور ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو كان له حكم المرفوع، ممّا روي عن الصحابة رضوان الله عليهم ويشمل هذا أسباب النزول"[٣].

وأمّا الشيخ محمد الفاضل فإنّه قد جعل التفسير بالمأثور مرتبطاً بسببين هما: "علوم أثرية نقلية هي من علوم الرواية لا من علوم الدراية، تتصل بعلم الحديث وعلم السيرة، وترجع إلى ضبط تواريخ النزول ، وعلاقات تلك التواريخ بمواقف من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومواقعها من نسبة بعضها لبعض بالتقدم والتأخر ، ومواقعها من تفاصيل الأحوال العامة والخاصة التي اتصلت بها... وأمّا السبب الثاني فهو ما في العديد من تراكيب القرآن من المجملات أو المبهمات أو المطلقات التي تتطلب التعيين أو التقييد في تعبيرات القرآن، والعلم بذلك غير متحقق لمن شهد نزولها إلا بالرجوع إلى المبلغ وهو النّبي صلى الله عليه وسلم، وأمّا من جاء بعدهم فنصّ عبارته فيهم هو: "فتلقوا عندما أفادهم فاطلعوا بأنَّ الذين أتوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة تلك الأمور المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لتتضح لهم تلك المعاني كما اتضحت لمن قبلهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج٢، ص١٢.

(٢) التحرير والتنوير (المقدمة الثالثة)، ابن عاشور، ج١، ص٢٦- ص٣٠.

(٣) التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، ج١، ص١٨٤.

بالخبر المأثور ممن ليس إلا عنده العلم المعصوم الذي يوضح ذلك وهو النبي صلى الله عليه وسلم، فتكوّن بذلك عنصر ثانٍ من عناصر التفسير هو وإنْ كان أقل عدد مواقع من العنصر الأول؛ لأنّه يختص بأمور معينة محصورة ، ولا يعم جميع أجزاء القرآن إلا أنّه أكثر تأكداً من العنصر الأول؛ لأن العنصر الأول يعين على فهم لم يكن متوقفاً عليه ، وأما هذا العنصر الثاني فإّن تحقيق محامل الألفاظ على المقاصد التابعة لمعاني الكلام الأصلية يتوقف عليه توقفاً مطلقاً. وعلى ما بين هذين العنصرين الأثريين من عناصر التفسير من تفاوت واختلاف، فإنّهما قد اتحدا في تكوين مادة مشتركة يعتمد عليها في تفسير القرآن، هي مادة نقليّة إخباريّة تستوي عامة عناصرها في الاندراج تحت عنوان جامع هو: التفسير بالمأثور"[1].

ولا يعكر على اتجاه الشيخ محمد الفاضل في تعريف مصطلح التفسير بالمأثور ما ذكره عن الشيخ محمد رشيد رضا: "ولكن لما استقل الشيخ رشيد بمعاناة العمل من مبدئه، وأصبح معتمداً على المصادر التي كان الأستاذ الإمام يأخذ منها ويترك حسب منهجه العلمي، بدأ هواه الأول للعلوم النقلية الأثرية يعاوده، ويأخذ به، فمال إليها، وتتبع رجالها: الأولين مثل الطبري، والآخرين مثل ابن كثير فبدت على التفسير مسحة أثريّة ما كانت بادية على أجزائه الخمسة الأولى، على ما يؤلف بين اللاحق والسابق من حيث القصد والأسلوب، فيما عدا هذا العنصر الأثري"[2].

وقد نصّ الشيخ رشيد رضا على المنهج الأثري في مقدمة تفسير المنار فقال: "هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى

---

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص٢٢/٢١ بتصرف يسير، وينظر كذلك: ص٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٣.

بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء أكان تفسيرا لها أم في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة"[1]. ولعل ذكر الشيخ الفاضل للاتجاه التفسيري للشيخ رشيد في التفسير بالمأثور على ما بينهما من تباين في بعض الوجوه هو من باب (لا مشّاحة في الاصطلاح).

القضية الثانية: تفسير ابن عباس رضي الله عنهما.

يرى الشيخ الفاضل أنّ التفسير في عهد ابن عباس رضي الله عنهما قد تطور وأخذ منحى جديداً عن التفسير في الزمن الذي قبله، ويرى أنّه قد أضاف إلى التفسير عنصرين جديديْن[2] زائديْن عن العنصريْن اللذيْن ذكرهما في تحديد مصطلح التفسير بالمأثور. **أولهما:** العنصر اللغوي في فهم معنى المفرد، أو فهم سرّ التركيب، ويتخذ مادة لذلك من الشعر الجاهلي. فكان كثيراً ما يقول عندما يُسأل عن معنى من تراكيب القرآن فيقرره: أما سمعتم الشاعر يقول كذا. **وثانيهما:** ما نُقل عنه في المصادر المعتمدة، إلى تفسير القرآن: هو عنصر الأخبار التي لم تجىء في حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم مما يرجع إلى بيان مبهمات القرآن: وذلك ما كان يرجع فيه إلى مصادر المعرفة المتوفرة لديهم يومئذ من التاريخ العام وأخبار الأمم، لا سيما الأمّتين الكتابيتين: اليهود، والنصارى.

ثم يعلل بهذين العنصريْن على وجوب رفض عدّ تفسير ابن عباس رضي الله عنهما من التفسير بالمأثور، فيقول: "ومن الظاهر أنّ هذين العنصريْن، وإنْ وجدا في بعض كلام ابن عباس، لا يصح اعتبارهما من التفسير بالمأثور؛ لأنّ مرجعهما إلى الفهم، وإلى المعرفة العامة مما يجوز أن يكون محل خلاف مقبول من طرف من يفهم فهماً غير الفهم الذي ارتضاه ابن عباس، اعتماداً على شاهد

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (المنار)، محمد رشيد رضا، ج١، ص ١٦.

(٢) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص٢٨.

غير الذي اعتمد عليه، أو جنوحاً إلى تخريج للتركيب على غير ما خرجه عليه ؛ أو يكون محل خلاف معتبر أيضاً من طرف من عنده معرفة أمر من التواريخ، أو أخبار الكتب السماوية القديمة يختلف عما عند ابن عباس، ويمكن توسيع المفاد القرآني به على خلاف ما رأى ابن عباس في توسيع المفاد القرآني بما لديه من المعرفة، ومن هنالك بدأ التفسير بالمأثور؛ يختلف بلون آخر من التفسير: يقبل اختلاف الأفهام، واختلاف التقادير، واختلاف الاجتهاد في استنباط المعنى، تبعاً لاختلاف ما يرجع إليه الاستنباط: من فهم لغوي، أو معرفة تاريخية لم تؤثر في السنة النبوية. وكما كان التفسير بالمأثور يرد هذا المورد الممزوج بغير المأثور عند ابن عباس، كان يرد كذلك عند غيره من الصحابة المختصين بالتفسير، وقد تفرقوا بين المدينة والكوفة والبصرة والشام، فاستقر كل واحد أو جماعة منهم في واحد من هذه المراكز كما استقر ابن عباس في مكة. ولكنّ المنقول من ذلك عن ابن عباس كان أوسع دائرة، وأتم رواجاً، بسبب ما امتاز به ابن عباس من الاعتبارات التي أسلفنا"[1]. ويبدو جليّاً تأثر الشيخ الفاضل باتجاه أبيه الشيخ الطاهر في عدم عدّ تفسير الصحابي من التفسير بالمأثور، حيث يقول ابن عاشور في تفسيره عن ابن عباس: "... وأما ابن عباس فكان أكثر ما يروي عنه قولا برأيه على تفاوت بين رواته"[2]. وأمّا عن اجتهادات الصحابة التفسيريّة فيقول: "ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة، فمن يليهم في تفسير آيات القرآن وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم"[3].

والباحثان إنْ وافقا الشيخ الفاضل في هذه الفكرة، فإنّهما لا يشاركانه الرأي في تأثر ابن عبّاس بالإسرائيليات من أخبار اليهود والنصارى في التفسير حسب ما

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص٢٩/٣٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١، ص٣٠.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص٢٦.

ذكره في العنصر الثاني؛ وذلك لسببين: الأول: ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما نفسه في التحذير من التلقي عن أهل الكتاب، حيث يقول رضي الله عنه: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَكِتَابُكُمْ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللَّهِ تَقْرَؤونَهُ لَمْ يُشَبْ. وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ، وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمْ الْكِتَابَ فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ {لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} أَفَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ. وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنْ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ"(١). يقول ابن حجر عن سبب إيراد البخاري لهذا الحديث عن ابن عباس في كتاب الشهادات: "والغرض منه هنا الردّ على من يقبل شهادة أهل الكتاب، وإذا كانت أخبارهم لا تقبل، فشهادتهم مردودة بالأولى؛ لأنّ باب الشهادة أضيق من باب الرواية"(٢). يقول الدكتور فضل حسن عباس: "هذا نهي ابن عباس رضي الله عنهما النّاسَ عن سؤال أهل الكتاب، فكيف ينهى عن شيء، ويقدم عليه؟ ذلك أمر لا يتناسب مع الخلق والدين لإنسان عادي، فضلًا عن ابن عباس ترجمان القرآن وحبر الأمة"(٣).

وتتبع العلماءُ الرواياتِ التفسيريّة التي زُعم أنّ ابن عباس رضي الله عنهما قد تأثر فيها في تفسيره فوجدوا أنّها موضوعة مكذوبة عليه(٤). وأما بالنسبة للصحابة فإنهم إنْ وجدوا رواية إسرائيليّة تخالف كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، وتتعارض مع بدهيّات العقل وبراهينه أنكروها وردّوها. ولهذا المنهج القويم من

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الشهادات، باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، حديث رقم ٢٥٣٩، ج٢، ص٩٥٣.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج٥، ص٢٩٢.

(٣) التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، ج١، ص٢٢٧.

(٤) تفسير الصحابة، عبدالله أبو السعود، ص٨٦.

الصحابة في التعامل مع الإسرائيليات وردّها فإنّ أثر الإسرائيليات في تفسيرهم كان باهتاً ضعيفاً؛ فلم يقبل الصحابة المفسرون عن أهل الكتاب إلا النّزر اليسير من الروايات المتعلقة ببعض قصص الأنبياء السابقين، ولا تمس العقيدة، ولا التشريع قط، بل توافق معاني القرآن والسنّة الصحيحة[١]. "ولأنّ مصادر التفسير عند الصحابة هي: الكتاب والسنّة ومعرفتهم بلغة العرب وأسباب النزول وما منَّ الله عليهم من رأي ثاقب؛ فإنّه يمكن القول بأن أخبار أهل الكتاب لم تكن من مصادر استمداد التفسير في عصرهم رضي الله عنهم"[٢].

القضية الثالثة: تدوين التفسير

يرى الشيخ محمد الفاضل أنّ ابن جريج هو أول من دوّن التفسير بعد أن كان يُروى مشافهة، وهو في ذلك يتابع أباه الشيخ محمداً الطاهر في هذه القضية. يقول الشيخ الطاهر: "وأما تصنيفه فأول من صنف فيه عبد الملك بن جريج المكي المولود سنة ٨٠ هـ والمتوفي سنة ١٤٩ هـ صنف كتابه في تفسير آيات كثيرة، وجمع فيه آثاراً وغيرها. وأكثر روايته عن أصحاب ابن عباس مثل عطاء ومجاهد"[٣]. وأمّا عبارة الشيخ الفاضل فهي: "فلما استهل القرن الثاني، وبدأت العلوم الإسلامية في دور التدوين انبرى أحد الأئمة الثقات من رجال الحديث: وهو عبد الملك بن جريج، المتوفى في سنة ١٤٩هـ إلى جمع تلك الأخبار في كتاب، فكان أول من ألّف في التفسير، وهو على ثقته المشهود بها عند ابن سعد، ومن بعده من علماء الرجال، لم يتحر آثار تلك النّقول، ولكنّه أورد الأقوال في تفسير القرآن على علاتها، فعقب كل خبر بما قيل فيه من تجريح أو تعديل، فدخل علم التفسير بذلك إلى حيّز التدوين الكتابي، على ما كان عليه من اختلاط بين

(١) تفسير الصحابة، عبدالله أبو السعود، ص٨١/٨٢ باختصار.
(٢) التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، ج١، ص١٥٨/١٥٩ باختصار.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١، ص١٣.

الصحيح والسقيم على قابلية كل منهما التمييز عن الآخر، بما سبق من النقود منذ القرن الأول، فاحتاج هذا الوضع إلى دراسة نقدية لتلك النصوص وتخريج جديد لها بأسانيدها مع الإلمام بالنواحي الثلاث التي أصبحت أخبار التفسير راجعة إليها: وهي الأثرية، واللغوية ، والعلمية، بحيث أصبح لكل ناحية من تلك النواحي الثلاث أثر في نقد الناحية الأخرى وتعديل ميلها، وتلك هي الخطة التي انتهجتها كتب التفسير ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثاني"(١). ومحمد الفاضل بذلك يُتابع والده (محمداً الطاهر) في أنّ ابن جريج أول من دوّن التفسير(٢).

وعلى كلّ حال؛ فإنّ هذا الرأي في نسبة أوليّة التدوين إلى ابن جريج لا يسلم من النقد، فقد جاء في ترجمته ما قاله هو عن نفسه: "ما دوّن العلم تدويني أحد"(٣)، وقال عنه الذهبي: "وأول من دوّن العلم في مكة"(٤)، فيتحصل من هذا أنّه لم يأتِ التصريح منه أو من غيره على أنّه أول من دوّن في التفسير على سبيل الخصوص. ويؤكد هذا ما روي عن عبد الرزاق بن همام الصنعاني عند ابن عدي في كتابه (الكامل) قال: "أول من صنف الكتب ابن جريج، وصنف الأوزاعي حين قدم على يحيى بن أبي كثير كتبه"(٥). فيلحظ النّاظر أنّه لم يذكره لوحده، ولم ينص على التفسير، ومثل هذا أيضاً وقع كذلك في كلام الإمام أحمد عندما سئل عن أول من صنف الكتب فقال: ابن جريج، وابن أبي عروبة"(٦).

وجاء في ترجمة حجاج بن محمد الأعور عند الخطيب البغدادي في تاريخه عن أحمد بن حنبل قال: "الكتب كلها قرأها على ابن جريج إلا كتاب التفسير؛ فإنّه

---

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص٣٣/٣٢ .
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١، ص١٣.
(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المزي، ج١٨، ص٣٤٧.
(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٦، ص٣٢٦.
(٥) الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، ج١، ص١٧٤.
(٦) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٦، ص٣٢٧.

سمعه إملاء من ابن جريج، ولم يكن مع ابن جريج كتاب التفسير فأملاه"[١]. وهذا المرويّ عن الإمام أحمد هنا لا يتعارض مع ما ورد آنفاً، فكلّ ما يدل عليه هذا القول يثبت أنّ له كتاباً في التفسير فقط.

والعبارة الصريحة التي وردت فيها الإشارة إلى أوليّة ابن جريج في تدوين التفسير وقعت عند الإمام أبي زكريا السلماسي[٢] غير مسندة، أو منسوبة إلى أحد من المتقدمين؛ حيث قال: "أول كتاب صُنف في الإسلام كتاب ابن جريج وهو عبد الملك بن عبد العزيز"[٣].

وقد تُعقب هذا الأمر المتعلق بدعوى أنّ ابن جريج أول من صنّف كتاباً في التفسير "فوُجدَ أن مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ) كان معاصراً لابن جريج، والأول نشأ في خراسان، والثاني نشأ في الحجاز. ولكن الثاني لم يطلب العلم إلا في الكهولة، بينما دوّن مقاتل بن سليمان التفسير في مرحلة الشباب. وبالتالي يُرجح أن يكون تفسير مقاتل بن سليمان أسبق بالتدوين"[٤].

والذي تطمئن إليه النفس أنّ هذه المسألة من المسائل الشائكة التي لا يُمكن القطع والجزم فيها بخبر فيه اليقين، وعليه فإنّه لا يُعلم على وجه الدّقة من أول من دوّن التفسير[٥].

---

(١) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج٩، ص١٤٢.

(٢) هو أبو زكريا بن أبي طاهر الواعظ السلماسي، سمع الحديث، وقدم إلى بغداد فوعظ بها، وكان له القبول التام، ثم غاب عنها نحواً من أربعين سنة، ثم قدم بعد الأربعين وخمسمائة فطلب أن يفتح له الجامع؛ ليعظ، فلم يجب إلى ذلك، فسمعنا عليه شيئاً من الحديث بقراءة شيخنا ابن ناصر، ثم رحل عن بغداد فتوفي في سلماس. توفي سنة خمسمائة وخمسين. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، ج١٠، ص١٦٤.

(٣) ينظر: التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، ج١، ص٢٤٦..

(٤) عبدالرحمن حللي، مسيرة علم التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله)، مجلة الدراسات القرآنيّة، العدد ١١، ١٤٣٣هـ، ص٥٨٩/٥٩٠، نقلاً عن عبدالله شحاته محقق كتاب (الأشباه والنظائر في القرآن) لمقاتل بن سليمان البلخي، ص٧٥/٧٦.

(٥) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج٩، ص١٤٢.

المطلب الثالث

التفسير الأثري النظري

بين يحيى بن سلام وابن جرير الطبري

يعتبُ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور على الباحثين أنّه لم يكن ثمّة ربط منطقي لمراحل التفسير في دراساتهم بسبب عدم مراعاتهم تسليط الضوء على تطور منهجية التعامل مع الروايات والنقولات التفسيريّة، والتعليق على تطوّر التفسير في القرن الثاني الهجري منه إلى القرن الثالث الهجري. يقول الشيخ رحمه الله تعالى: "وإنه لَما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام: أنّ الذين يشيرون إلى هذه الطريقة وخصائصها من الكاتبين حديثاً في تاريخ التفسير، يبادرون إلى ضرب المثل بتفسير محمد بن جرير الطبري، فيقطعون بذلك سلسلة التطور في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني؛ لأنّ تفسير ابن جرير الطبري أُلّف في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفى في أوائل القرن الرابع، والحال أنّ الحلقة التي يتم بها اتصال السلسلة وضاعت عن الكاتبين المحدثين في تاريخ التفسير: من المستشرقين وغير المستشرقين، هي حلقة إفريقيّة تونسيّة، بالوقوف عليها يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جريج، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مديناً بذلك المنهج الأثري النظري الذي درج عليه في تفسيره العظيم. إنّما نعني بهذا تفسيراً جليلاً من صميم آثار القرن الثاني، وهو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ألف بالقيروان وروي فيها، وبقيت نسخته الوحيدة بين تونس والقيروان، وهو الذي يعتبر مؤسس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري التي سار عليها بعده ابن جرير الطبري واشتهر بها. ذلك هو تفسير يحيى بن سلام التميمي البصري الأفريقي المتوفى سنة ٢٠٠هـ، وهو تفسير يقع في ثلاثين جزءاً من التجزئة القديمة أي في ثلاث

مجلدات ضخمة، مبني على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقبها بالنقد والاختيار فبعد أن يورد الأخبار المروية مفتتحاً إسنادها بقوله: "حدثنا" يأتي بحكمه الاختياري مفتتحاً بقوله: "قال يحيى"، ويجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوي ، والتخريج الإعرابي، ويتدرج من اختيار المعنى إلى اختيار القراءة التي تتماشى وإيّاه، مشيراً إلى اختياراته في القراءة بما يقتضي أنّ له رواية أو طريقاً لا يبعد أن تكون راجعة إلى قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري؛ لأن يحيى بن سلام بصري النشأة، وإلى طريقه المختار في القراءة يشير في تفسيره بقوله: (والذي في مصحفنا)"[1].

ويُعنى بالتفسير الأثري النظري أو التفسير النقدي: التفسير الذي يجمع بين جانبين: الأول: جانب التفسير بالمأثور، القائم على الرواية، وإيراد الأقوال الماثورة فقط دون نظر أو تحليل أو تأويل. الثاني: جانب التفسير بالرأي، القائم على النظر والاجتهاد، والتحليل والتأويل دون ذكر للمأثور[2].

والذي ذهب إليه الشيخ محمد الفاضل في أنّ طريقة ابن سلام التفسيريّة كانت ممهدة لابن جرير للسير عليها في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) فيكون بذلك ابن سلّام الأفريقي أول من خطا بالتفسير هذه الخطوة المنهجيّة[3]. غير أنّ هذا لم يكن محل اتفاق من الجميع، فالدكتور محمد حسين الذهبي يرى عكس ذلك تماماً؛ حيث قال: "إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذى له الأوَّلية بين كتب التفسير، أوَّلية زمنية، وأوَّلية من ناحية الفن والصناعة. أما

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص٤٢/٤٣.

(٢) تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح الخالدي، ص٣٠١.

(٣) قال الإمام الذهبي في ترجمة (يحيى بن سلام): "سكن إفريقيا (يعني: تونس) دهراً، وسمعوا منه كتابه في تفسير القرآن، وليس لأحد من المتقدمين مثله، وكتابه الجامع. وكان ثقة ثبتاً عالماً بالكتاب والسنة. وله معرفة باللغة العربية. تاريخ الإسلام، الذهبي، ج١٤، ص٤٤٣.

أوَّليته الزمنية، فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا[١]، وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شيء منها، اللَّهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذى نحن بصدده. وأما أوَّليته من ناحية الفن والصناعة، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته"[٢].

والذين وافقوا الشيخ محمد الفاضل على مذهبه في أسبقية[٣] ابن سلام في المنهج النقدي في التفسير سلّموا بأنّ الطبري هو خير من طبّق هذه المنهجية في التفسير. يقول الدكتور صلاح الخالدي: "وتفسير ابن جرير هو خير من يمثل منهج (التفسير الأثريّ النظريّ)"[٤].

وشرحت محققة تفسير يحيى بن سلام الدكتورة هند شلبي معنى قول الشيخ محمد الفاضل هذا التفسير "وهو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق..." فقالت: "والمقصود بكلام الشيخ أنّ هذه الأقدميّة إنّما هي باعتبار تناول المفسر جميع السور القرآنية بجميع آياتها بالبيان، وفق منهج جديد هو المنهج الأثري النظري، وهذا أمر واقع بالفعل، فإنه لم يذكر أحد أنّه يوجد اليوم بين أيدي الناس تفسيرٌ أقدم من تفسير ابن سلام أُلّف على هذا المنهج". وقالت أيضاً: "فابن سلام في تفسيره لجميع آيات السورة يعتبر أمراً جديداً[٥]، أو قد يكون هو أول من قام به،

---

(١) كان أول التفاسير ظهوراً في النصف الثاني من القرن الثاني بعد كتاب عبد الملك ابن جريج، التفاسير المتوخية طريقة جمع الأقوال بحسب ما انتهى إلى مؤلفيها من طرق الإسناد". ينظر: التفسير ورجاله، ص٣٦.

(٢) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج١، ص١٥٠/١٥١.

(٣) ينظر: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح الخالدي، ص٣٠٢/٣٠٣.

(٤) المصدر السابق، ص٣٥٨.

(٥) يعترض بعض الباحثين على هذا بأنّ تفسير مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ) أقدم من تفسير يحيى بن سلام، وأنّ قول الشيخ الفاضل إن تفسير ابن سلام أقدم التفاسير الموجودة=

أو يكون من الأوائل الذين سنّوا هذه الطريقة في التفسير. أمّا المنهج فابن سلام وإن لم يختلف فيه السابقون، فهو يعتمد مثلهم الرواية بأسانيدها، واللغة، وعلوم القرآن، لكنه أدخل عناصر جديدة لم نرها معتبرة لديهم". ثم ذكرت محققة التفسير بعض هذه الأمور مثل: تعديد الروايات في شرح الآية الواحدة، والتوسع في التفسير بذكر حكم شرعي، أو رفع إبهام أو سرد أحداث قصّة، أو استعراض أحداث موقف يزيد الآية بياناً، ومن هذه الأمور أيضاً: الاهتمام بالإعراب وتعليله، وكذلك التعليل في القراءات المختلفة، والاهتمام ببيان نظم الآية، وأثر ذلك في المعنى، والنقد والترجيح بين الأخبار التي تقدمها الرواية باستعمال عبارات دالّة على ذلك" ثم خلصت لنتيجة مفادها: "إنّ المنهج الذي اتبعه ابن سلام في تفسيره يبين النقلة النوعيّة التي حصلت في التفسير عموماً؛ لذلك لا يمكن تصنيف كتابه بين التفاسير التي ظهرت قبله، فهو يمثل مرحلة تلَت تلك التي توفرت في مثل تفسير ابن مجاهد، ومهدت لظهور مرحلة ثالثة تجسمت بتميّز في تفسير الطبري"[1].

والمحققة هند شلبي التي اعتنت بتحقيق جزء كبير من تفسير ابن سلام، هي أستاذة في علم التفسير والدراسات القرآنية في الجامعة الزيتونيّة[2]. وفي لقاء جمع الدكتور فهد الرومي مع المستشرق الألماني (ميكلوش موراني) أخبر الأخير

=على الإطلاق، فيه شيءٌ من التوّسع، ولعل ذلك الحكم إنّما كان في ضوء ما اطلع عليه الشيخ الفاضل من فهارس المخطوطات، أي أنّه مقيّد بما وصل إليه علمه في عصره.
ينظر: عبد الرحمن حللي، مسيرة علم التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله)، مجلة الدراسات القرآنيّة، العدد ١١، ١٤٣٣هـ، ص٥٨٩/٥٩٠.

(١) تفسير يحيى بن سلام، تقديم وتحقيق هند شلبي، يحيى بن سلام، ج١، ص١٤/١٥.

(٢) المصدر السابق، من كلمة (التقديم) لتحقيق تفسير يحيى بن سلام بقلم الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، ج١، ص٩١٩.

الأول بأنّ الخط الذي كُتب به تفسير ابن سلام لا يستطيع أحدٌ قراءته إلا هند شلبي[١]. وقد ظهرت عناية الأستاذة هند شلبي بتأكيد وجهة نظر الشيخ محمد الفاضل بأنّ الطبري في جامع البيان كان مديناً لابن سلام في المنهج الأثري النظري[٢]؛ فاستدلت برواية ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن يحيى بن سلام في تفسير{وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ} [البقرة: ١٩٦]، حيث قال الطبري: حدثني به محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: حدثنا يحيى بن سلام أنّ شعبة حدثه عن ابن أبي ليلى، عن الزهري، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: رخّص رسولُ الله صلى الله عليه وسلم للمتمتع إذا لم يجد الهدي ولم يصم حتى فاتته أيام العشر، أن يصوم أيام التشريق مكانها[٣].

وقد استقرأ الباحثان من كتب التراجم أسماء تلاميذ يحيى بن سلام، ثم بحثا في أن يكون ابن جرير قد روى أمراً تفسيريًّا آخر عن أحد هؤلاء التلاميذ بسندهم لابن سلام فلم يجدا غير هذا المثال الوارد أعلاه. يقول الدكتور فضل حسن عباس رحمه الله تعالى: "إنّ ابن جرير الطبري كان الأساس الذي اعتمد عليه

---

(١) مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، مساعد الطيار، ج١، ص٥٣٩.

(٢) وبنحو هذا ذهب إليه صاحب كتاب (التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا)؛ حيث ذهب إلى أن تفسير ابن سلام هو حلقة الوصْل بين التفاسير المتقدمة الخالية من أيّ تدخل من المفسر مثل تفسير ابن جريج ومجاهد وغيرهما، وبين تفسير الطبري الذي استفاض في ذكر اللغويات والقراءات والترجيحات. ينظر: التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا (رسالة دكتوراه منشوره)، محمد بن رزق طرهوني، ص٥٤٨.

(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣، ص١٠٠.

المفسرون فيما بعد، وما أظن أنّ الطبري قد اطلع على تفسير يحيى ابن سلام حتى جعله الأساس لتفسيره، وإلا لأشار إليه رحمهما الله تعالى"[١].

إذاً" فالرواية اليتيمة التي استدلت بها الدكتورة هند شلبي لا تنهض دليلاً على أخذ الطبري عن ابن سلام، فالمسألة الواردة في الرواية هي مسألة فقهيّة، ويُظن أنّها فيما كان يتداول من الروايات عن ابن سلام في المشرق قبل ذهابه إلى المغرب"[٢]. يقول الدكتور مساعد الطيّار: "وفي نقل الماوردي (ت:٤٥٠هـ) من تفسير يحيى (يعني: ابن سلام)، وذكر اختياراته ما يُستأنس به من أن تفسيره دخل بغداد بعد الطبري (ت:٣١٠هـ)، وابن أبي حاتم (ت:٣٢٧هـ)" [٣].

قلنا: ما نظن أنّ ابن جرير الطبري قد شغلته مسألة (أقدم من كتب في المنهج الأثري النظري) وهو الذي أمضى ثلاث سنين[٤] يستخير الله تعالى في تأويل كتابه حتى شرح صدره لذلك، ثم لم يقم بهذا إلا وقد علكَ العلوم، وهضم المعارف[٥]. ثمّ على افتراض أنّ ابن سلّام أول من سنّ سنّة التفسير الشامل للقرآن، ونقد الروايات، وتوجيه القراءات، وتوظيف مسائل الإعراب، وغير ذلك من

---

(١) التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، ج١، ص٩٩.

(٢) مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، مساعد الطيار، ج١، ص٥٤٠ بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق ج٢، ص٤٥٨.

(٤) قال الطبري عن نفسه: "استخرت الله وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين، فأعانني". سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١٤، ص٢٧٤.

(٥) قال أحد تلاميذه، وهو أبو بكر ابن كامل: "أملى علينا (يعني: ابن جرير الطبري) كتاب التفسير مائة وخمسين آية، ثم خرج بعد ذلك إلى آخر القرآن، فقرأه علينا وذلك في سنة سبعين ومائتين".

معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج٦، ص٢٤٥٢.

وقد كانت ولادته رحمه الله تعالى في حدود مائتين وأربع وعشرين للهجرة.

مسائل الرأي- فإنّ الأوليّة في ابتداع الشيء أو ابتكاره لا تعني دائماً التفوّق والتميّز؛ فالأقران أو غير الأقران قد يتشابهون في شكل الإخراج، أي في الخطوط العريضة للمنهج، ولكنهم يختلفون في جودة المحتوى والمضمون، ومن هنا يأتي التميّز والتمايز، قال ابن تيمية عن تفسير الطبري: "وأمّا التفاسيرُ التي في أيدي النّاس فأصَحُّها تفسير محمدِ بن جريرٍ الطبري فإنّه يذكرُ مقالاتِ السّلفِ بالأسانيدِ الثابتةِ، وليس فيه بدعةٌ، ولا ينقل عن المتّهَمَيْن مقاتل بن بُكيْر والكَلْبي"(١). وقال السيوطي: "فإنْ قلتَ: فأيّ التفاسير ترشدُ إليه، وتأمرُ النّاظرَ أن يعوّل عليه. قلتُ: تفسير الإمام أبي جعفر بن جرير الطبري الذي أجمع العلماءُ المعتبرون على أنّه لم يُؤلّف في التفسير مثله"(٢).

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ج٥، ص٨٤.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج٤، ص٧٨٩.

المطلب الرابع
بين الزمخشري في الكشاف،
وابن عطية في المحرر الوجيز

يُشهد للشيخ محمد الفاضل أنّه يُقر لأعلام التفسير جهدَهم وتحقيقهم لعيون المسائل المتعلقة بالكشف عن مراد الله تعالى، مع بيانه الإضافة النوعيّة للمفسرين في تفاسيرهم في المضمون والأسلوب، ولعل تسمية الكتاب (التفسير ورجاله) توحي بمدى هذا الإجلال والتقدير الذي كان يحتفظ به في نفسه لهؤلاء النبلاء من المفسرين، ولكن الذي يؤخذ عليه هو شدة حملته، وتحامله على الزمخشري –على وجه الخصوص– في موضع المقارنة بينه وبين ابن عطية المغربيّ، وسنورد هنا قضيتيْن فقط من القضايا التي حمل فيها عليه، ثم نورد الردّ عليهما؛ لأهميتهما، وطلباً للإيجاز، وخشية التطويل.

يقول الشيخ محمد الفاضل تحت عنوان (بين الزمخشري وابن عطية): "لقد سما تفسير ابن عطية إلى مساواة تفسير الزمخشري مصافّاً ومكاتفاً، فإنّهما زيادة على اتفاقهما في المعاصرة قد اتفقا في المنهج العلمي الأدبي، وتشابها بتشابه صاحبيهما في تأسس ثقافتهما العامة على أساس الأدب واللغة. ولكنهما وراء هذا الاتفاق يختلفان من أوجه عدة ينبغي الالتفات إليها لإحكام المقارنة بين التفسيرين العظيمين، فكما اختلفا في أنّ تفسير ابن عطية من آثار الشباب، وتفسير الزمخشري من آثار الشيخوخة". وقال أيضاً: "... كان تفسير الزمخشري في المواطن الكثيرة التي يختلف فيها وجه تخريج الآية عند المعتزلة عنه عند السنيين التزاماً دفاعيّاً، وكان تفسير ابن عطية في تلك المواطن نقديّاً هجوميّاً، فكان يمثل صولة الغالب العتيد على المنهزم المتراجع، ولقد قوي هذا في تفسير ابن عطية بما أضيف إليه من عاملي قوة بيانيّة يرجعان إلى شبابه وعروبته. فإنّ الشباب أفاده قريحة متقدة ونظرة حادّة يتناول بهما موضوعه في قوة وسرعة ومتانة إلمام،

فيأتي بيانه محبوكاً منسجماً. والعروبة أفادته طبعاً أصيلاً، وسليقة صافية ففاض بيانه قوياً هتافاً سائغاً سلساً. ولما اختلف عنه الزمخشري بالشيخوخة والعجمة؛ فإنّ أسلوبه البياني قد جاء متثاقلاً مفككاً، ومواضعه متفاوتة، وتعبيره ثقيلاً كزّاً، ترهقه كلفة الصناعة، مع نبوّة الطّبع"[١].

وفيما يأتي مناقشة الشيخ محمد الفاضل في هاتين القضيتيْن:

القضية الأولى: أنّ المحرر الوجيز لابن عطية هو من آثار الشباب، وأما الكشاف للزمخشري فهو من آثار الشيخوخة. والردّ على هذا أنّه متى كانت الشيخوخة نقصاً في صاحبها، أليست الشيخوخة تمثّل النضج والخبرة واكتمال الأهلية العلمية واستقرار الشخصية البحثية؟ والعلماء بعد تقدم سنهم ونضجهم كثيرا ما يرجعون لما كتبوه في شرخ شبابهم فيكرّون عليه تعديلا وتصويبا أو حذفا وإلغاء. فمن المستغرب أن يجعل الشيخ الفاضل هذه النقطة – التي هي في صالح الزمخشري– نقصا وعيبا يفضل عليه بها ابن عطية. ولسنا هنا في وارد تفضيل أحد العَلَمين على الآخر، ولكننا نناقش طريقة الاستدلال العلمية عند المؤلف في هذه القضية وصولا إلى النتيجة التي يريدها. كما أنّ الشيخ محمد الفاضل إذا عاب على الزمخشري أنّه ألّف تفسيره في آخر عمره؛ فالأمر نفسه قد يقال على تفسير أبيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى؛ فإنّ إنجازه تفسير (التحرير والتنوير) كاملاً كان ومحمد الطاهر في آخر العقد الثامن من عمره؛ حيث انتهى منه في١٣٨٠هـ أي قبل وفاته بحوالي ١٣ سنة تقريباً؛ حيث توفي سنة ١٣٩٣هـ[٢]. وأمضى محمد الطاهر بن عاشور في تصنيفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر[٣]، وهذا يعني أنّه بدأ فيه وهو في حوالي منتصف العقد

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص٨٩/٩٠.

(٢) الأعلام، الزركلي، ج٦، ص١٧٤.

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج٣٠، ص٥٥٨.

الخامس، أي في ١٣٤١هـ، ولم يقل أحدٌ: إنّ آخرَ التفسير أقلّ جِدَة، وأضعف حبكاً من أوّله.

القضية الثانية: أنّ الشباب والعروبة جعلا أسلوب ابن عطية وبيانه قويّاً سلساً محبوكاً، وأمّا الزمخشري فإنّه بسبب الشيخوخة والعُجمة جاء أسلوبه متثاقلاً مفككاً.

والردّ على ذلك من وجوه متعددة:

أولها: كيف ينسجم ويتلاءم هذا القول من الشيخ محمد الفاضل عن أسلوب الزمخشري في التفسير البياني مع قوله هو نفسه عن الزمخشري: "... فأقام هنالك بمكة في عودته بمدرسة اختص بها، واشتهرت به كائنة تجاه الكعبة المشرفة، عند باب "أجياد" من أبواب المسجد الحرام، وهنالك انقطع لتفسير القرآن تفسيراً على الطريقة العلمية: مبناه تحليل التركيب، وبيان خصائصه، واعتبار إعجازه على المنهج الذي مهده الشيخ عبد القاهر في "دلائل الإعجاز"[1]. وبذلك يخالف الكلام اللاحق الذي فيه الغمط من قدْر الزمخشري في التفسير البياني، مع الكلام السابق الذي فيه الإعلاء من شأْوِ الكتاب ومنهجه.

ثانيها: المواضع المتعددة التي أثنى فيها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على تفسير الكشاف، وجعله العمدة في التفسير البياني، ومقدماً إيّاه على تفسير ابن عطية وغيره، وفيما يلي بعض هذه المواضع:

١-قول الطاهر بن عاشور وهو يتحدث عن التفاسير من حيث الأهميّة والجِدة:

"والتفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لا حظّ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل. وإنّ أهم التفاسير تفسير "الكشاف"، و"المحرر الوجيز" لابن عطية، و"مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي، "وتفسير البيضاوي" الملخص من "الكشاف" ومن "مفاتيح

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص٨١.

الغيب" بتحقيق بديع، و"تفسير الشهاب الآلوسي..." [١]. ويمكن للنّاظر أن يرى بجلاء كيف أنّ الطاهر بن عاشور قدّم الكشاف في الأهميّة على المحرر الوجيز.

٢-قول الطاهر بن عاشور وهو يتحدث عن مسالك المفسرين في تفسير القرآن: " إلى أن جاء في عصر واحد عالمان جليلان أحدهما بالمشرق، وهو العلامة أبو القاسم محمود الزمخشري، صاحب "الكشاف"، والآخر بالمغرب بالأندلس وهو الشيخ عبد الحق بن عطية، فألّف تفسيره المسمى بـ"المحرر الوجيز". كلاهما يغوص على معاني الآيات، ويأتي بشواهدها من كلام العرب، ويذكر كلام المفسرين إلا أنّ منحى البلاغة والعربية بالزمخشري أخص، ومنحي الشريعة على ابن عطية أغلب، وكلاهما عضادتا الباب، ومرجع من بعدهما من أولي الألباب"[٢]. وهنا يصرح ابن عاشور بتفوق الزمخشري في باب البلاغة والعربيّة، وبتميّز ابن عطية في أبواب الشريعة.

٣-قول الطاهر بن عاشور حول الحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آي القرآن: "فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مقل مثل معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج، والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي، ومن مكثر مثل الكشاف"[٣].

وهذا الوصف الإجمالي لابن عطية (مُقل) من ابن عاشور في بيانه الأسرار البلاغية في القرآن قد وجدنا تفصيلاً لأسبابه عند الدكتور عبد الوهاب فايد في رسالته في الدكتوراه (منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم)، والتي نُشرت كتاباً

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١، ص٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١، ص١٤.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٠٠.

فيما بعد، حيث عقد في الرسالة عنواناً: **(إقلاله من الأسرار البلاغيّة في تفسيره)**[1].

فابن عطيّة يذهب إلى أنّ الوجه الرئيس في إعجاز القرآن إنّما هو في أسلوبه، ونظمه، وصحة معانيه؛ حيث صرّح بذلك في مقدمة تفسيره قائلاً: "وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذّاق، وهو الصحيح في نفسه أنّ التحدي إنّما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه أنّ الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثمّ كذلك من أوّل القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنّسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أنّ بشراً لم يكن قط محيطاً. فبهذا جاء نظمُ القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النّظر يبطل قول من قال: (إنّ العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن فلما جاء محمّدٌ صلى الله عليه وسلم صرفوا عن ذلك، وعجزوا عنه)"[2].

ويكشف الدكتور عبد الوهاب فايد عن السبب الأول في ظاهرة الإقلال من الأسرار البلاغية في تفسير ابن عطية، وهو متعلق بشخص ابن عطيّة في أنّه كان قليل العناية بالدراسات البلاغية كغيره من الأندلسيين والمغاربة، فيقول: "إنّني – في أثناء دراستي لهذا التفسير– وجدت أنّ ابن عطية لم يُعن كثيراً في تفسيره بالأسرار البيانيّة، والنكات البلاغيّة، ووجوه الإعجاز البياني، ولقد كان الظنّ به أن يبرز لنا في تفسيره أسرار الإعجاز البياني في أسلوب القرآن الكريم؛ حيث إنّه نادى بذلك منذ أول لحظة في تفسيره، فما السّر في ذلك؟. السّر في ذلك – كما يبدو لي– أنّ ابن عطية كغيره من الأندلسيين والمغاربة لم يشغل نفسه

---

(١) منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم (رسالة دكتوراه منشورة)، عبدالوهاب فايد، ص٢٠٧.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، ج١، ص٥٢.

كثيراً بعلوم البلاغة والبيان، وأنّه لم يعكف على دراستها والتعمق في مسائلها، وهذه العلوم هي التي تُعَرِّف وجوهَ إعجاز القرآن الكريم في أسلوبه ونظمه، ولقد نشأت هذه العلوم في المشرق، وتوفر المشارقة على درسها وشرحها وتأليف المصنفات فيها، أمّا المغاربة فكانوا أقلّ شأناً من المشارقة في هذا الميدان"(١). ثم ينقل عن ابن خلدون رحمه الله تعالى تعليله لهذه الظاهرة؛ حيث قال: "وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن (يعني: البيان) أقوم من المغاربة، وسببه والله أعلم أنّه كماليّ في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران. والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه؛ أو نقول لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق، كتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفنّ، وهو أصله"(٢).

ويرى الدكتور عبدالوهاب فايد أنّ السبب الثاني في الظاهرة المتعلقة بقلة الأسرار البيانيّة والبلاغيّة في تفسير(المحرر الوجيز) راجع إلى أنّ ابن عطية كان يرى عدم التوسع في إطلاق المجاز على ألفاظ القرآن الكريم؛ حيث ضيّق دائرته، فلا مجاز فيما تتأتى فيه الحقيقة، فمتى أمكن حمل اللفظ القرآني على الحقيقة فلا ضرورة تدعو إلى القول بالمجاز فيه، وأنّه لا يُحكم بالمجاز إلا فيما تستحيل فيه الحقيقة(٣).

٤- قول الطاهر بن عاشور عن التفاسير المؤلفة في التفاصيل الوافية للإعجاز في آي القرآن: "وعمدتها كتاب الكشاف للعلامة الزمخشري"(٤).

ثالثها: الإقرار بالتفوق بشهادة مؤرخ وقطب من أقطاب وأعلام المغرب العربي، وهو العلّامة ابن خلدون؛ حيث يقول في معرض بيان قيمة (علم البيان): "واعلم أن ثمرة هذا الفن إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في

---

(١) منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، عبد الوهاب فايد، ص٢٠٧.
(٢) المقدمة، ابن خلدون، ج٢، ص٣٧٥
(٣) ينظر: منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، عبد الوهاب فايد، ص ٢٠٨/٢٠٧ وكذلك: ص٢١١.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج١، ص١٠٤.

وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختص بالألفاظ، في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنّما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه؛ فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك؛ لأنهم فرسان الكلام وجهابذته، والذوق عندهم، موجود بأوفر ما يكون وأصحه. وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون، وأكثر تفاسير المتقدمين غفل منه، حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بإحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير..." (١).

ولخص الإمام البحرُ أبو حيان الأندلسي الفرق بين الزمخشري وابن عطية فقال: " وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص، إلا أنّ الزمخشري قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة..." (٢).

وأخيرا نقول إن حكم الفاضل بن عاشور على بيان الزمخشري بأنه جاء متثاقلاً مفككاً، ومواضعه متفاوتة، وتعبيره ثقيلاً كزّاً، ترهقه كلفة الصناعة، مع نبوّة الطّبع هو حكم يخالف ما أطبق عليه العلماء في وصفهم للزمخشري الذي تعددت كتبه في النحو والبلاغة والأدب وكان مرجعا في هذا الباب. فالفاضل هنا أتى الزمخشري من قلعته الحصينة ولو أنه أتاه من غيرها لكان أهون.

وهناك قضية أخيرة يظهر فيها عدم الإنصاف في مقارنة الفاضل بين ابن عطية والزمخشري لم نشأ أن نناقشها لظهور بعد وجاهتها وخلل الاستدلال بها،

---

(١) المقدمة، ابن خلدون، ج٢، ص٣٧٥/٣٧٦.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج١، ص٢١.

وهي تفضيل ابن عاشور ابن عطية على الزمخشري في مذهبه الفقهي؛ فابن عطية مالكي والزمخشري حنفي، ولا ندري ما الدافع لابن عاشور لإيراد هذه النقطة في المقارنة إلا أن يكون التعصب للمذهب، وهو ما ينبغي الترفع عنه في البحث العلمي النزيه.

المطلب الخامس

رأي الشيخ محمد الفاضل

في نسبة تفسير مفاتيح الغيب إلى الإمام الرازي.

بيّن الشيخ محمد الفاضلُ الباعثَ للإمام الفخر الرازي لتصنيف تفسيره مفاتيح الغيب وهو "أن يضع القرآن العظيم موضع الدراسة والبحث والتحليل على منهج يرى تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرائق الفلسفية، وانفرادها بهداية العقول البشرية إلى غايات الحكمة، من طريق العصمة"(١).

ثمّ أبانَ بشكل إجمالي عن منهج الرازي في تفسيره، والدور الذي اضطلع به التفسير في تجلية وجهين آخرين من الإعجاز القرآني وهما الإعجاز العلمي والإعجاز الغيبي؛ أما الوجه الأول من الإعجاز وهو الغيبي فقد تكفل به تفسير الزمخشري(٢). ثم أعقب ذلك بالتنويه على منزلة تفسير الرازي بين كتب التفسير بالمقارنة مع تفسير الكشاف على وجه الخصوص(٣). وبعد هذا كلّه عقد الإمام الرازي عنواناً هو (تصحيح نسبة التفسير إلى الإمام الرازي) ويمكن تلخيص كلامه فيه في محوريْن:

المحور الأول: الشواهد على أنّ التفسير من وضع الإمام الرازي: على الرغم من أنّ تفسير الإمام الرازي "تفسير مقسم في أصله على السور على معنى أن تفسير كل سورة كتاب قائم بذاته، وهو لم يكن متبعاً في تفسير السور، سابقها ولاحقها، ترتيبها في المصحف. ولكن كان يظهر في ختم السور من الإمام الرازي ما يشهد بأنّه هو صاحب هذا التفسير؛ فبعضها ختم ببيان الزمان، وبعض آخر اشتمل على بيان الزمان والمكان معاً، بل جاء في ختم بعضها تفصيل ظروف

---

(١) ينظر: التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص١٠٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق، ص١١٢-١١٤ باختصار.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص١١٤

خاصة كانت تحيط بحياة المؤلف"[١]. "وكذلك شأنه في غير موضع من تفسيره يذكر من أحواله في مناظراته ورحلاته ويشير إلى خصائصه، من اسمه واسم أبيه، وظروف حياته، ما يطور شيئاً كثيراً من سيرته، ولا يُبقي شكاً في أنّ صاحب ذلك التفسير هو الإمام محمد بن عمر الرازي"[٢]. "وما اشتمل عليه من طرائق في البحث والبيان، إلى مذاهب عرفت بنسبتها إلى الرازي، وبسطت في كتبه الحكمية والكلامية والأصولية، ومن ولع بتتبع التفاسير ومناقشتها من آثار العصابة التي لم يزل الرازي يتتبع مقالاتها ويهتم بمناقشة مذاهبها: وتلك هي تفاسير المعتزلة التي وضعت من تفسيرنا المبحوث فيه موضع الاعتناء بالنقل والتتبع والتمحيص: مثل تفسير الزجاج، وتفسير الزمخشري، وتفسير القاضي عبد الجبار، وتفسير القاضي أبي مسلم الأصفهاني. وزيادة على ما اشتمل عليه من أقوال وتنويه برجال عرف الإمام الرازي بما تقتضيه نسبته منهم من اعتماد عليهم وتنويه بهم، وبخاصة إمام الحرمين والغزالي من المتكلمين، وأبي علي بن سيناء من الحكماء"[٣]، فكل ما تقدم هو شواهد تقطع بصحة نسبة التفسير إلى الإمام الرازي بكليّته وتمامه من أوّله إلى آخره .

المحور الثاني: القوادح في نسبة التفسير كاملاً إلى الإمام الرازي.

وتتلخص هذه القوادح في أمرين اثنيْن:

١-ما اشتمل عليه الكتاب في مواضع، من إسناد الكلام إلى الإمام الرازي إسناد ناقل عنه؛ فقد تكرر أن ورد في التفسير "قال الإمام"، أو "قال المصنف"[٤]. ويرد أحياناً ("المسألة الأولى أصولية ذكرها الإمام فخر الدين رحمه الله في

---

(١) المصدر السابق، ص١١٩بتصرف.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٢.

(٣) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص١٢٤/١٢٥.

(٤) المصدر السابق، ص١٢٥/١٢٦.

مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها"، ثم قال: "وقد أجاب عنه الإمام فخر الدين رحمه الله بأجوبة كثيرة وأظن به أنه لم يذكر ما أقوله فيه)"[١].

٢-"ما مال كثير من المحققين إلى تتبع المواقع التي بدت فيها القوادح، فوجدوها منحصرة في أماكن متأخرة في الترتيب عن التي ظهرت فيها الشواهد، فجزموا بأن أول الكتاب من وضع الرازي، وأنّ آخره من إكمال غيره. واعتضدوا لذلك بأنّ الأقربين إلى عصر الرازي من مترجميه ذكروا أنه لم يكمله وفي مقدمتهم ابن خلكان[٢]، وقد عيّن صاحب كشف الظنون اثنين ذكر أنّ أحدهما صنّف تكملة له، وذكر أنّ الآخر أكمل نقصه[٣]، ويظهر أنّ التكملة كتاب مستقل ولكن إكمال النقص هو الأجدر بأن يحمل على ما اتصل بوضع الرازي، وذلك ما نسبه صاحب كشف الظنون إلى القاضي شهاب الدين الخويى الدمشقي المتوّفى سنة ٦٣٩هـ وهو قريب عهد من الإمام الرازي، ولا يبعد أنّه من تلاميذه..."[٤].

وأمّا رأي الشيخ محمد الفاضل في هذه المسألة فيوضحه قوله في خاتمة بحثه لها: "والذي يبدو في نظرنا فيصلاً بين ذلك كله: أنّ الرازي لما انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير تمكن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي، وبقي شيء في الأمالي والمسودات بيد بعض تلاميذه، فأقبل على تصنيفه وتحريره، وألحق في ذلك الفرع بالأصل. فالكتاب بروحه هو للرازي كلّه، وبتحريره هو من وضعه في الأول، ووضع تلميذه الخويي في الآخر. على أن تحقيق محل الفصل بين التحريرين أمر لا دليل عليه ولا سبيل إلى تحقيقه بالقطع، لا سيما وبين أيدينا

(١) المصدر السابق، ص١٢٦/١٢٧.

(٢) يُنظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج٤، ص٢٤٩.

(٣) يُنظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة (كاتب جلبي)، ج٢، ص١٧٥٦.

(٤) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص١٢٧.

أدلة على أن تفسير الرازي قد كان ذكره شائعاً ونصه مفقوداً في أوائل القرن الثامن ببلاد العجم..."[١]. وهذه النتيجة التي انتهى إليها الفاضل بن عاشور غير دقيقة، وكان سببها الاستقراء الناقص لتفسير الإمام الرازي، أو الاعتماد على كلام الباحثين السابقين، والثقة بما توصلوا إليه من نتائج مع أنه يظهر بعد البحث أنّ استقراءهم أيضا كان ناقصاً. وهنا لم نجد لمناقشة هذا الموضوع أفضل من دراسة الدكتور محسن عبد الحميد في أطروحته العلمية التي نال بها درجة الدكتوراه الموسومة ب (الرازي مفسراً)، وقام فيها باستقراء كامل للتفسير، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن تفسير الرازي بكليته؛ من أوله إلى آخره هو للرازي، ونحن هنا نلخص أبرز الأدلة على ذلك، وإن كان هذا لا يغني عن تفصيل ما جاء عند الدكتور محسن الذي تتبع كل الشبهات وأجاب عليها في هذه القضية في بحث مطوّل، ولم يدع احتمالاً للقول المخالف.

يرى الدكتور محسن عبد الحميد أن من زعم بأنّ الرازي لم يتم تفسيره (مفاتيح الغيب) فقد أخطأ، وقال: "والذي انتهيت إليه بعد قراءتي التفسير كلّه أنّ جميع هؤلاء قد أخطأوا نتيجة لعدم قراءتهم جميع التفسير؛ ولو فعلوا مثلما فعلت لكان من الممكن أن يصلوا إلى ما وصلت إليه، وهو أن تفسير (مفاتيح الغيب) اعتباراً من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة النّاس له، وليس لغيره، وأنّ ما فيه من عبارات تدل على أنّ شخصاً آخر اشترك في كتابته ليس إلا تعليقات متناثرة من بعض تلامذته أضيفت إلى المتن، أو كُتبت في الحاشية، ودخلت المتن أثناء استنساخه"[٢]. ثم ساق الدكتور محسن عبد الحميد أدلته على مذهبه في تصحيح نسبة تفسير مفاتيح الغيب كاملاً إلى الإمام الرازي، وفيما يأتي تلخيص لها:

أولاً: في القسم الأول الذي لم يشك أحد أنّه للرازي يُحيل في التفسير إلى سور متقدمة، كأن يقول مثلاً في تفسير {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا

(١) التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، ص١٢٨.
(٢) الرازي مفسراً (رسالة دكتوراه منشورة)، محسن عبد الحميد، ص٥٦.

لِلنَّاظِرِينَ*وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [الحجر: ١٦، ١٧]: "فقد استقصينا الكلام في سورة الملك في تفسير { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الملك: ٥]. ثم أجاب على سؤال افتراضي: وإن قيل: فكيف إذن نبّه في أول التفسير إلى أمور شرحها في الوسط والأخير؟ قلنا: إنّ الرازي – كما تبيّن لنا من تاريخ كتابته للتفسير – لم يتبع الترتيب القرآني، وإنّما فسّر السورَ سورةً سورةً في أوقات متفاوتة، فقد تبيّن أن فسر بعض السور المتأخرة قبل السور المتقدمة كما هو ظاهر من التواريخ التي وضعها في نهايات تفسيرها"[١].

ثانياً: الأقسام الأخيرة ورد فيها إشارات على أنّ الذي كتبها هو الرازي نفسه الذي كتب الأقسام الأولى، فقد قال الإمام الرازي مثلاً في نهاية تفسير سورة الصافات: "تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين"[٢] . ثم ذكر مجموعة من الملاحظات تؤكد وجهة نظره في أنّ نسبة القسم الأخير من التفسير لا تختلف البتّة عن نسبة القسم الأول منه. ومن هذه الملاحظات[٣]:

١–التوافق التام في المصطلحات التي يسير عليها، والتوافق التام كذلك في أسلوب الكتاب، وكذا أسلوبه في البدء والختام.

٢–اعتماده على نفس المصادر، وترجيح الآراء بنفس المعيار.

٣–اتجاهه في إبداء الآراء، واختيار العقائد، ودفع الشبهات واحد.

٤–الأسلوب الواحد في معالجة المسائل المهمة.

---

(١) المصدر السابق، ص٥٦–ص٥٨ باختصار.

(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ج٢٦، ص٣٦٤.

(٣) الرازي مفسراً، محسن عبد الحميد، ص٥٩–ص٦١ اختصار.

ثم أجاب الدكتور محسن عبد الحميد عن السؤال حول مشكلة ورود عبارات تدل على أنّ شخصاً آخر قد كتب بعض الأقسام، فقال: "ولا شك أنّها من كلام تلميذه الذي نسخ التفسير، وأعاد النّظر فيه؛ لأنّنا نقرأ في مكان آخر هذه العبارة: (وقال الغزالي فيه: إنّ ذلك لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فجعله قلب القرآن لذلك، واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه اللّه تعالى سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام)[١]. ثم يتابع قائلاً: "إذن هي تعليقات منه (يعني: التلميذ) كتبها إمّا في الحاشية، ودخلت بفعل النّساخ إلى صلب التفسير، أو أضافها في أماكنها عندما وجد بعض الأوراق ضائعة من الأصل. ثم إنّ الرّازي أكمل تفسير بعض السور في سنة ٦٠٣هـ، والحال أنّه توفي سنة ٦٠٦هـ فلِمَ لا نقول: إنّه في هذه السنوات الثلاث استطاع أن يُكمل تفسيره، وهي مدّة تكفي لذلك، وذلك أنّ السور المتقدمة تُظهر أنّه كان سريع الكتابة في تفسيره؛ فلقد كتب تفسيرَ سورٍ طويلة في مدّة قصيرة. وهذه الالتفاتة التاريخيّة تقدم دليلاً على ما ذهبنا إليه، وهو أنّ الرازي كتب التفسيرَ كلّه"[٢].

* *

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ج٢٦، ص٣١١.

(٢) الرازي مفسراً، محسن عبد الحميد، ص٦٢/٦٣ بتصرف يسير.

الخاتمة

(النتائج والتوصيات)

١. دراسة الشيخ محمد الفاضل في كتابه (التفسير ورجاله) تدل على أهمية استنباط أصول التفسير وضوابطه من خلال مسالك المفسرين ومناهجهم للكشف عن مراد الله تعالى في كتابه المجيد، وإبراز الحِكم القرآنيّة فيما ينفع النّاس في حياتهم، ويُصلح أمرهم.

٢. كتاب (التفسير ورجاله) للشيخ محمد الفاضل بن عاشور رحمه الله تعالى، من أحسن ما كُتب في العصر الحديث عن (التفسير والمفسرين) تطوّراً ومنْهجاً، وهو على وجازته مرجعٌ أصيلٌ لا غِنى عنه في بابه.

٣. لا يُعلم على وجه الدّقة هل كان تأليف محمد الفاصل لكتابه (التفسير ورجاله) قبل أو بعد انتهاء أبيه الشيخ محمد الطاهر من تفسيره (التحرير والتنوير).

٤. اقتران العلم بالعمل عبادة وطاعة، وواقعاً ومجتمعاً إذا تحدث عنه أناسٌ كان محمد الفاضل بن عاشور أحد النماذج الحيّة في هذا المضمار.

٥. لئن كان محمد الطاهر بن عاشور قد دفع ابنه للعلم دفعاً، فقد تركه لمّا بلغ مبلغ التصدر في مجال البحث والفكر، والمشاركة في أنشطة الحياة، فكانت لمحمد الفاضل صورته المستقلة التي ميّزته، وإن كانت تلك الصورة قد تأثرت، ولم تنفك بملامحها الكلية عن منهج الأب علماً وفكراً.

٦. معاصرة مدرسة الابن (محمد الفاضل) مع مدرسة الأب (محمد الطاهر بن عاشور) لم تؤثر على شخصية الابن، بل كانت له قناعاته الخاصة، فقد يوافق حَيناً أباه، ويخالفه، ويعارض غيره في أحيانٍ أخرى.

٧. لا يستطيع أحد الجزم في مسألة (أول من دوّن في التفسير) هل هو عبد الملك بن جريج أو غيره؛ فهي من المسائل الشائكة التي لا يُمكن القطع فيها بخبر فيه اليقين.

٨. ظهر الميل واضحاً لمدرسة المغاربة في التفسير عند الشيخ محمد الفاضل بشكل عام، وعلى وجه التعيين في مسألة المقارنة بين الزمخشري وابن عطيّة.

٩. لم يطلع ابن جرير الطبري على تفسير يحيى بن سلّام، وتطمئن النفس إلى أنّ تفسير ابن سلام دخل المشرق متأخراً بعد وفاة شيخ المفسرين رحمه الله تعالى.

١٠. الراجح أنّ الإمام الرازي أتمّ تفسيره كلّه (مفاتيح الغيب) في حياته، وأنّ ما فيه من عبارات تدل على أن شخصاً آخر قد كتب بعض أقسامه فهي "تعليقات من بعض تلاميذ الرازي كتبت في حواشي التفسير، ثم أضيفت مع الزمن بفعل النّساخ، أو من إضافة التلاميذ أنفسهم لما رأوا أن مواضع منه ضائعة من الأصل".

***التوصيات:** يوصي الباحثان بشرح كتاب (التفسير ورجاله) لا سيما أنّ سمة أسلوب الكاتب (الشيخ محمد الفاضل) تجعله قريباً من كتب (المتون) نظراً لسبك العبارة، ووجازتها، وغزارة إشاراتها.

المصادر والمراجع

***القرآن الكريم**

١-إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

٢-الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، ط٤، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

٣-الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، بيروت، ٢٠٠٢م.

٤- أعلام تونسيون، الصادق الزمرلي، تقديم وتعريب: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٦م.

٥-الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، حققها وخرّج أحاديثها: شعيب الأرنؤوط، اعتني به وعلّق عليه: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، ط٤، بيروت، ٢٠٠٨م.

٦-البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، د.ط، بيروت، د.ت.

٧-تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذّهبي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.

٨-تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٢م.

٩-التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٠-تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٩٤م.
١١-تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط٨، دمشق، ٢٠٠٨م.
١٢-تفسير الصحابة، عبد الله أبو السعود، دار ابن حزم، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٣-تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، مصر، ١٩٩٠م.
١٤-التفسير ورجاله، محمد الفاضل ابن عاشور، طبعة دار الكتب الشرقيّة، ط٢، ١٩٧٢م.
١٥- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، د.ط، القاهرة، د.ت.
١٦- التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، دار النفائس، ط١، عمان، ٢٠١٦م.
١٧-التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا (رسالة دكتوراه منشورة)، محمد بن رزق طرهوني، دار ابن الجوزي، ط١، الدمّام، ١٤٢٦هـ.
١٨-تفسير يحيى بن سلام، يحيى بن سلام، تقديم وتحقيق: هند شلبي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م
١٩-تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن الزكي المزي، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.
٢٠-جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.
٢١-الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: مصطفى البغا، دار ابن كثير- اليمامة، ط٣، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٢-جوانب من شخصية العلامة محمد الفاضل بن عاشور، خليفة محفوظي، مجلة دعوة الحق، العددان: ١٣١ و١٣٢.

٢٣-الرازي مفسراً (رسالة دكتوراه منشورة)، محسن عبد الحميد ، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤م.
٢٤-روح الحضارة الإسلامية، محمد الفاضل بن عاشور، ضبطها وقدّم لها عمر عبيد حسنه، الدر العالميّة للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، الرياض- فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكيّة، ١٩٩٢م.
٢٥-سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذّهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت، ١٩٨٥م.
٢٦-الفتاوى الكبرى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٧-فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي ابن حجر العقسلاني، دار المعرفة، د.ط، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٢٨-الكامل في ضعفاء الرجال، أحمد بن عدي الجرجاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنّة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٩-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عبد الله بن مصطفى حاجي خليفة (كاتب جلبي)، عنى بتصحيحه: محمد شرف الدين يالتقايا، دار إحياء التراث العربي، د.ط، بيروت، د.ت.
٣٠-المجمعيون (مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً)، مهدي علام،الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، د.ط، القاهرة، ١٩٦٦م.
٣١-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت، ١٩٩٧م.

٣٢-مسيرة علم التفسير من منظور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله)، عبد الرحمن حللي، مجلة الدراسات القرآنيّة، العدد ١١، ١٤٣٣هـ.
٣٣-معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار النشر الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.
٣٤-معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢، كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.
٣٥-مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، د.ط، بيروت، د.ت.
٣٦-مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، مساعد الطيار، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط٢، ٢٠١٥م.
٣٧-المقدمة، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، حقّق نصوصه وخرّج أحاديث وعلّق عليه عبد الله محمد الدرويش، ط١، دار البلخي- مكتبة الهداية، دمشق، ٢٠٠٤م،
٣٨-منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، يحيى بن إبراهيم الأزدي السلماسي، تحقيق: محمود بن عبد الرحمن قدح، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط٤، ٢٠٠٢م.
٣٩-مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، القاهرة، د.ت.
٤٠-المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن ابن الجوزي، دار صادر، ط١، بيروت، ١٣٥٨هـ.
٤١-منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم (رسالة دكتوراه منشورة)، عبد الوهاب فايد، الهيئة العامّة لشئون المطابع المصرية، د.ط، القاهرة، ١٩٧٣م.
٤٢-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط١، ، بيروت، ١٩٧١م.

* * *